

حُسْنُ الْخُلُقِ

يوسف الياس عبدالله القرغاني

الطبعة الثانية ٢٠٢٦



حُسْنُ الخُلُقِ

يوسف الياس عبدالله القرعاني

الطبعة الثانية 2026

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

• (أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظُ أمانةٍ وصدقُ حديثٍ وحسنُ

خُلُقٍ وعِفَّةٌ في طُعْمَةٍ)¹

• (إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربكم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنُكم أخلاقًا، وإنَّ من

أبغضكم إليَّ وأبعدكم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيِّهونَ)²

• (إن المؤمنَ ليُدرِكُ بحُسنِ خُلُقِهِ درجةَ الصائمِ القائمِ)³

• (ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلُقٍ حسنٍ وإنَّ اللهَ يُبغضُ

الفاحشَ البذيءَ)⁴

¹ أخرجه أحمد.

² أخرجه الترمذي.

³ رواه أبو داود.

⁴ أخرجه أبو داود

إهداء

أتقدم بإهداء هذا الكتاب "حسن الخلق" إلى صاحب الخلق الحسن الأخ الفاضل الشيخ جابر بندر الجابر الصباح، تقديرا لمواقفه الداعمة وتشجيعه المستمر لكافة الأعمال الأخلاقية والأدبية. وأسأل الله العلي القدير أن يوفقه في حياته الشخصية والعملية، وأن يفتح له أبواب النجاح ويبارك له في عمله وجهده ويوفقه إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة.

مقدمة

بسم الله والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على من أرسله الله جل وعلا رحمةً للعالمين، ونسأل الله، سبحانه وتعالى، التوفيق والسداد في القول والعمل. بدايةً، نود التنويه بأن كتاب "حسن الخلق" يهدف إلى تسليط الضوء على سجية عظيمة من سجايا البشرية والتي قد يتحلى بها بعض الناس إضافة إلى توضيح أهمية هذه السجية ودورها في تمكين الإنسان من العيش حياة طيبة كريمة بعيدة عن الضغوط النفسية والمشاكل الاجتماعية. للتحلي بهذه السجية العديد من المميزات الأخرى التي تساعد الإنسان على تهذيب النفس والتخلص من الخصال السيئة كالحسد، وبغض الآخرين لأسباب تافهة وقد لا تتجاوز هذه الأسباب مجرد اختلاف في وجهات النظر وإصرار كل فرد على رأيه. ومن تمتع بهذه السجية، سجية حسن الخلق، فإنه يكون أكثر مرونة من غيره وعادة ما يترفع عن سفاسف الأمور ويكون أكثر تقبلاً لآراء الآخرين وأكثر احتراماً لهم.

غالبا ما يكون الأفراد الذين يتمتعون بهذه السجية أقرب إلى قلوب البشر وأقرب إلى خالقهم خاصة إذا صاحب حسن الخلق إيمان وإحسان فأولئك هم الصفوة الذين وعدوا بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ

وأبعدكم مّي يوم القيامة الثّارونَ والمتشدّدونَ والمتفیهقونَ)¹. فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من أحب الناس إليه هم ذوو الأخلاق العالية وهم أيضا أصحاب الدرجات العالية في الجنة لحسن خلقهم وأنهم أقرب الناس مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة.

من أهداف هذا الكتاب أيضا الكشف عن مقومات حسن الخلق وما يساعد عليه وكيف يستطيع الأفراد تهذيب أخلاقهم إن هم أرادوا ذلك وسعوا لتحقيقه، فمجرد الإرادة لا تكفي وإنما يجب أن تُتبع هذه الإرادة بعزيمة صادقة وعمل وإصرار على تحقيق ما نصبوا إليه. عموماً، القول لا يغني عن الفعل، بل لابد من الفعل حتى يبرهن على صحة القول ويثبته فقد يقول قائل أنا أكرم الناس، فيبقى قوله ما بين أخذ ورد حتى يأتي بفعل يُصدّق قوله أو يُكذّبه. ومن أحب شيئاً سعى إليه وبذل له الجهد والوقت لتحقيقه، فمن أراد تعلم شيئاً كلغة جديدة مثلاً فلن يتعلمها ما لم يبذل الأسباب من دراسة ومتابعة وتحليل لاستخدامات هذه اللغة، فإن بذل هذه الأسباب قد يبلغ ما يصبو إليه، وإن لم يبذل الأسباب فسيبقى تعلم هذه اللغة مجرد حلم وأمنية بالنسبة له.

يركز الكتاب أيضا على الفضائل التي تتحقق بحسن الخلق وكيف يقود حسن الخلق صاحبه لبلوغ الدرجات العلا في الآخرة، وكيف أن حسن الخلق يساهم في تعزيز

¹ سبق تخريجه، ص: 3.

الراحة النفسية للأفراد الذين يتحلون به ويساهم في تمكينهم من الشعور بالاستقرار والطمأنينة لأن من حسن خلقه هو أبعد ما يكون عن الأماكن والأقوال المشبوهة ومتابعة أخبار الناس وتعقب زلاتهم فيرتاح ويريح غيره. لمثل هذه الأسباب، تلعب هذه السجية دوراً كبيراً في تعزيز الجانب النفسي وتقوية الأفراد وجعلهم أكثر مرونة وقدرة على مواجهة الصعاب والتغلب على مُنْغِصات الحياة.

ومن الأمور التي يبحث فيها الكتاب الشباب وحسن الخلق خاصة أن الشباب يحتاجون هذه السجية أكثر من غيرهم لأن طبيعة حياتهم وأنشطتهم ومرحلة النمو التي يمرون بها وانشغالهم بمتطلبات الحياة والضغط التعليمية والعائلية قد تبعدهم قليلاً عن هذه السجية الكريمة. وهنا تكمن أهمية دور الآباء في مساعدة أبنائهم لينشؤوا النشأة الصالحة التي يتمناها كل مسلم لشباب المسلمين. وقد أولى الإسلام أهمية كبيرة لصالح الشباب لأن صلاحهم يعد بجيل صالح يقود الأمة بعد حين؛ لذلك استحق الشاب الذي ينشأ على عبادة وطاعة الله جل وعلا ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

كما يبحث الكتاب في عدة أمور أخرى مثل حسن الخلق بين الأفراد الذين اعتادوا ركوب بعض المعاصي ومن ذلك نزع الحجاب بين بعض نساء المسلمين وتقليد غير المسلمين في عدد من الأمور مثل نوعية اللباس وقصات الشعر وتناول بعض المحرمات وما ثبت ضرره ثبوتاً قطعياً كالتدخين والمسكرات والمخدرات وغير ذلك. أما فيما يتعلق

ببعض نساء المسلمين ممن ابتلين ببعض المعاصي مثل نزع الحجاب رغم أنهن يتحلين بأخلاق حسنة بما في ذلك حسن المعاملة وإتقان العمل والالتزام بكثير من العادات الحسنة، فلا بد لهن من التفكير السليم لاستدراك ما يمكن استدراكه قبل أن تنتهي رحلتنا في هذه الحياة ثم لن تنفع ندامة على تفريط بعدها، ونسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولهن الهداية والتوفيق والسداد.

يناقش الكتاب أيضا نواقض حسن الخلق وكيف أن بعض الصفات الأخرى أو التصرفات، التي تخالف تعاليم الإسلام، تساهم في نقض وهدم هذه السجية الكريمة إضافة إلى تقديم بعض النصائح لكافة الأفراد وحثهم على بذل كل الجهود الممكنة لتهديب أخلاقهم بالقول والفعل والدعاء، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
(اللهمّ كما حسّنتَ خلقي فحسّني خُلقي)¹.

يوسف الياس عبدالله القرعاني

¹ رواه أحمد.

تمهيد

نحن بصدد الحديث، بإذن الله تعالى، عن سجية عظيمة وخصلة جميلة من خصال الإنسان التي يجدر بالناس عامة والمسلمين خاصة التحلي بها، ألا وهي حسن الخلق. لهذه السجية أهمية كبيرة في حياة البشر ولها كثير من الفوائد الإيجابية كتعزيز المودة بين الناس وبناء مجتمعات صالحة و متماسكة؛ لذا فقد اعتنى الإسلام بحسن الخلق عناية فائقة لما له من أهمية كبيرة في إصلاح حياة المسلمين ولأنه مفتاح لكل خير ودافع لكثير من المفسد والشور. بحسن الخلق ترتقي الأمم ويزداد احترام الناس لبعضهم ويسود الإخاء واللطف، والعكس صحيح إذ إن سوء الخلق يساهم في نشر الشحناء والبغضاء بين أفراد المجتمع.

من هذا المنطلق، يتوافق حسن الخلق مع كل ما هو جميل ويتناقض مع كل ما هو قبيح، وذلك لأن حسن الخلق يتضمن المعاملة الحسنة للآخرين وحسن التصرف والكلام وكذلك حسن القول والفعل، بل ويتعدى ذلك إلى إتمام العمل على الوجه الأكمل لأن من حسنت أخلاقه لن يرضى بما هو ناقص ويسعى دائما لتحقيق الكمال في تصرفاته وأفعاله وأقواله ومختلف جوانب حياته. علاوة على ذلك، يسمو الخلق الحسن بصاحبة ليلبغه الكمال في الحياة الدنيا ويبلغه الدرجات العلا في الآخرة، فهنيئا لمن تحلى بهذه السجية العظيمة.

من حيث المعنى، لا يخفى مفهوم الحسن على أحد إذ هو ضد القبح وكلما ما هو مستهجن فالحُسْنُ هو الجمال ويقال: وجه حسن أي جميل، ويقال: أيضا سلوك حسن أي جيد ومقبول من كافة الجوانب. أما الخلق فهو السجية والأدب والتأدب مع الآخرين. ووفقا لذلك، فإن حسن الخلق يعني السجية أو السجايا الحميدة والجميلة التي تميز بعض الناس عن بعضهم عندما يتحلون بها فتجعل لهم القبول في قلوب الآخرين وتزيد من احترام الناس لهم. إن حسن الخلق يتطلب عدداً من الخصال مثل الحلم والصبر والعفو إضافة إلى أمور أخرى كثيرة كطلاقة الوجه وصلة من وجبت له الصلة كصلة الأرحام وحسن الصحبة مع الأصدقاء والأصحاب في الحل والترحال، وغير ذلك.

لقد كان حسن الخلق والأخلاق العالية الرصينة من السجايا المهمة التي اعتنت بها البشرية منذ فجر التاريخ وركز عليه قدامى العلماء والفلاسفة لما له من دور مهم في بناء المجتمعات وتعزيز الأواصر الاجتماعية. ومن الفلاسفة القدامى الذين اعتنوا بحسن الخلق أفلاطون حيث أسس نظريته المشهورة في الأخلاق والتي تبنت فكرة أن كل عمل أدبي يجب أن يقدم درساً أخلاقياً يستفاد منه. وكذلك تمتع العرب في الجاهلية بعدد من السجايا المميزة التي تبرهن على محاسن الأخلاق مثل إغاثة الملهوف والكرم والطلاقة خاصة عند استقبال الضيوف وهذا يمثل سجية حسنة وركيزة مهمة من محاسن الأخلاق.

عندما جاء الإسلام وضع حسن الخلق على سلم الأولويات وجعل الأفضلية في الدنيا والآخرة لمن حسنت أخلاقهم، كما رَغِبَ الإسلام جميع المسلمين وحثهم على التحلي بهذه السجية والأخذ بالأسباب التي تؤدي إليها. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)¹، أي أن الخيرية جعلت لمن حَسَنَ خلقه. وفي هذا الحديث الشريف ترغيب عظيم في هذه السجية الحسنة التي تعد أحد الأسس المهمة لبناء الحياة الكريمة التي يتمناها كل إنسان على وجه البسيطة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدُّنيا حفظُ أمانةٍ وصدقُ حديثٍ وحسنُ خُلُقٍ وعِفَّةٌ في طُعْمَةٍ)². أما حسن الخلق فهو يرقى بصاحبه إلى المراتب العالية في الدنيا والآخرة. ونص الحديث على أمور عظام آخر مثل التزام الصدق والمحافظة على الأمانات والتزام الحلال في المأكل والمشرب.

حسن الخلق ينهى أيضا عن كل الأمور التي تؤثر سلبا على حياة الأفراد الاجتماعية ويسمو بهم حتى يكونوا صفوة مجتمعاتهم، فلن تجد فاسدا، أو مرتشيا، أو ظالما، أو سارقا، أو غيرهم ممن اعتادوا على النقائص بين من حسنت أخلاقهم؛ وذلك لأن خلقهم الحسن يمنعهم عن كلما هو قبيح ومذموم ويحثهم على كلما هو حسن ومحمود.

¹ متفق عليه.

² سبق تخريجه، ص: 3.

إن حسن الخلق وفعل الخير ومختلف الفضائل والسجايا تتواجد دائما بين المسلمين والناس بشكل عام، ولكن الحياة تزدهر وتكون أفضل وأهنا عندما تنتشر هذه السجايا الحسنة بين عدد أكبر من أفراد المجتمع. فلو تأملنا أي مجتمع لوجدنا الصالح والطالح والبر والفاجر والمحسن والمسيء، والأصل في هذا الأمر أن على كل مجتمع العمل على تعزيز هذه الخصال الطيبة بين أفرادها؛ لأنه إذا غلب على أفراد المجتمع الصلاح وحسن الخلق، يزدهر المجتمع ويتطور ويسوده العدل والمساواة، وإذا غابت هذه السجايا فستحل محلها سجايا أخرى غير محمودة مما يؤدي إلى انتشار الفساد والظلم وعدم المساواة بين أفراد المجتمع. يعد انتشار الفساد من أخطر الآفات التي تفتك بالمجتمعات؛ لأن أفراد المجتمع يشعرون مع انتشار الفساد بالظلم والظلم يمثل الخطوة الأولى نحو هدم المجتمع.

على أفراد المجتمع أن يدركوا أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة لأن الأولى هي التي تحفظ الثانية؛ أي أن حفظ المصالح العامة يقوي المجتمع ويحفظ الحقوق بينما تقديم المصالح الخاصة وإهمال المصالح العامة يفتح بابا من أبواب الفساد ويساهم في تردي الخدمات وتراجع المجتمع بشكل عام. يجب على أفراد المجتمع أن يعلموا أن المصالح العامة هي مصالحهم وهي الأصل لأن القيام عليها وحفظها يؤدي إلى رقي المجتمع وتطوره وزيادة الاحترام بين أفرادها وبالتالي كل فرد من ذاك المجتمع

سيستفيد منها، بينما المصالح الخاصة، إذا كانت على حساب المصالح العامة، يستفيد منها صاحبها فقط على كره من أفراد المجتمع الآخرين. وهذا أيضا يفتح باب الكراهية والمنافسة غير الشريفة؛ لأنها تكون على حساب مصلحة المجتمع ككل، إضافة إلى انتشار عدم الرضا وخلق مشاكل مجتمعية قد تؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها.

لمثل ما سلف من الأسباب، استحق حسن الخلق اهتمام الكثير من الناس بشكل عام والعلماء بشكل خاص على مر التاريخ لأنهم عرفوا قيمته الحقيقية ودوره في تحسين نوعية الحياة التي يحيها الناس. ومع انتشار هذه السجايا الحسنة تصفو الحياة خاصة عندما يشعر الناس بالمساواة وأن حقوقهم محفوظة، عندها يبدؤون بأداء واجباتهم على أكمل وجه ممكن وينجزون أعمالهم على رضا منهم وليس خوفا من العقوبة أو المشاكل التي ربما يواجهونها في العمل.

الفصل الأول

أهمية حسن الخلق

لا شك أن حسن الخلق سجية كريمة وهي أحد أهم السجايا التي قد يتمتع بها الإنسان في حياته لما لها من دور مهم في تحقيق الاستقرار الأسري والاجتماعي وبناء مجتمعات متماسكة قائمة على حب التعاون والإنجاز الذي يساهم دائما في تقدمها وازدهارها. تكمن أهمية حسن الخلق أيضا في تعزيز الاحترام والمودة بين مختلف أفراد المجتمع، فمن حسنت أخلاقهم من المسلمين غالبا ما يحترمون الآخرين ويحسنون الظن بعامّة المسلمين ويراعون ذمهم، فكل مسلم له حق وذمة وأولها حق أخوة الإسلام، هذا إن لم يكن قريبا أو جاراً.

مَنْ حَسَنَ خَلْقَهُمْ دَائِمًا يِرَاعُونَ مَشَاعِرَ الْآخَرِينَ وَيَتَجَنَّبُونَ أَيْضًا سُوءَ الظَّنِّ وَلَا يَتَهَمُونَ النَّاسَ دُونَمَا بَيْنَهُ أَوْ دَلِيلَ قَاطِعٍ وَيَنْزِلُونَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ. عندما يتحلى الناس بهذه السجية الكريمة، فإنهم يعيشون طيبي النفوس محبين للخير لهم ولغيرهم وأبعد ما يكونوا عن سفاسف الأمور وَيَرْتَبُونَ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ كَافَةِ الْخِصَالِ السَّيِّئَةِ مِثْلَ الْحَسَدِ وَالْكَذْبِ وَالرِّيَاءِ وَمَتَابَعَةِ زَلَاتِ الْآخَرِينَ وَكُلِّ مَا يَسَاهِمُ فِي تَقْوِيضِ أَخْلَاقِهِمُ الْحَسَنَةِ. وبحسن خلقهم هم أيضاً يلعبون دوراً مهماً في صلاح من حولهم لأنهم عندما يعاملون الناس باحترام فإن الناس الآخرين سيعاملونهم بالطريقة ذاتها، ومن ثم سينتشر هذا التعامل الحسن بين عدد أكبر من الأفراد وقد يصبح حسن الخلق سجية لغيرهم، لمن لم يتحل به من قبل، بسبب تأثيرهم بسلوك من حَسَنَ خَلْقَهُ.

لحسن الخلق فوائد جمة لأنها سجية متعدية يستفيد منها صاحبها وغيره لما تتضمنه من الكثير من الأمور الطيبة وتساهم في سمو المجتمعات؛ ولأن حسن الخلق يساعد على بناء بيئة صحية قائمة على التعامل الحسن والاحترام المتبادل. ولما لهذه السجية من أهمية، فإن على المسلم أن يطمح دائماً إلى إتمام أخلاقه وإيمانه وأن يكون من المحسنين وأن يجعل من حسن خلقه سفيرا له بين الناس من حوله فقد يتأثر به بعض أو كثير من الناس. إن أول من يتأثر بحسن خلقك هم المقربون منك وهم أفراد عائلتك، فبحسن خلقك أنت تعينهم على صلاح أمرهم حتى وإن لم تتحدث إليهم كثيراً في هذا الأمر؛ وذلك لأن حسن الخلق سلوك مكتسب قد يكتسبه الإنسان من أبيه أو أمه أو جاره أو صديقه أو من بيئته التي من حوله.

ومما يتوجب علينا، نحن كمسلمين، ألا نستهيئ بأهمية حسن الخلق وأن نعمل على تهذيب سلوكنا وأن نجتنب الفاحش من القول في كل مكان وخاصة في البيت لأن الأبناء سينشؤون ويعتادون على ما أَلْفَوْه وعلى ما تعودوا سماعه. إذا تَعَوَّدَ الأبناء على سماع الكلام الطيب من والديهم، فإنهم سيقلدونهم وسيشعرون بالحياء إذا نطقوا بكلمة واحدة غير لائقة، وأما إذا ما اعتاد الأبناء على سماع الآباء يتكلمون كلاما غير لائق فإنهم سيستخدمون نفس الكلمات في حضورهم وأمام أعينهم، وطبعاً في غيابهم من باب أولى. من أحب أن يربي أبنائه التربية الصحيحة فعليه أولاً بحسن الخلق فإنه الخطوة الأولى

لتوجيه الأبناء في المسار الصحيح. إن أهمية حسن الخلق نابعة من كونه أحد أول خطوات الإصلاح وهي التي تبدأ من الشخص نفسه ثم العائلة وصلاح العائلة يُعدّ أولى خطوات إصلاح المجتمع ككل.

كن سفيرا للمسلمين وغير المسلمين بحسن خلقك فإن استطعت التأثير إيجابيا على أحد فربما كان لك به أجراً عظيماً خاصةً إذا كان هذا الشخص له تأثير على غيره لأنه سيساهم في نشر هذه الخصلة الجميلة أو نشر أي من أفعال الخير بين المزيد من الناس. لقد أشارت قصص عديدة إلى المساهمة العظيمة للتجار المسلمين في إسلام إندونيسيا، علماً بأن أولئك التجار كانوا يسافرون إلى ذلك البلد من أجل التجارة وليس من أجل الدعوة، لكن أخلاقهم الحميدة أثرت تأثيراً كبيراً في ذلك البلد. تنسبُ عدد من الروايات انتشار الإسلام إلى التجار المسلمين لأن الناس هناك تأثروا بأخلاقهم. وقبل دخول الإسلام إلى تلك البقاع من المعمورة، كان من أبرز الديانات السائدة البوذية والهندوسية، وبدأ الإسلام ينتشر تدريجياً في تلك البقاع وازدادت وتيرة انتشاره مع حلول القرن الخامس عشر الميلادي عندها بدأ الناس يعتنقون الدين الحق على نطاق واسع.

عندما نتأمل هذه القصة نستخلص منها دروساً عجيبةً خاصةً أن التجار المسلمين ربما لم يخطر ببالهم مدى التأثير الذي ستركونه على العديد من الممالك هناك. علاوة على ذلك، لو سُئِلَ أحدهم في تلك الأيام عن إمكانية نشر الإسلام في تلك المناطق ربما لم

يتوقع أن مثل هذا الأمر يمكن له الحدوث، بل وربما لم يرق طموحه إلى نشر الإسلام بذلك الشكل وأن يكون له ذلك الصدى. أما الآن وبعد مئات السنين، فقد تجاوزت نسبة المسلمين في إندونيسيا كثيراً من الدول الإسلامية والعربية التي كانت مهدياً لانطلاق الفتوحات وإرساء معالم الدين.

في أيامنا هذه، تمثل إندونيسيا أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان الذي تجاوز 274 مليون نسمة، وتبلغ نسبة المسلمين منهم أكثر من 88%، وقد دخل الإسلام هذه البلاد دونما حرب أو قتال، بل بحسن أخلاق التجار ومعاملاتهم الصادقة. ومن الدروس المستفادة أيضاً، أن أخلاقك الحسنة قد تؤثر إيجابياً بشخص ما وذلك الشخص يؤثر إيجابياً على آخرين فتكون بحسن خلقك قد فعلت فعلاً عظيماً دون أن تشعر به. ومن هذا المنطلق، يجب على المسلم أن يفعل الخير أينما كان حتى إن كان لا يتوقع من ذلك تأثيراً كبيراً؛ لأنه لا أحد يعلم يقيناً ما سيحدث، إلا الله سبحانه وتعالى، فيجب أن يكون المسلم سفير خير وقدوة حسنة في كل تصرفاته وأفعاله وأن تكون نيته خالصة لوجه الله جل وعلا وأن يعمل بمقتضى ذلك.

ترتبط أهمية حسن الخلق أيضاً بعدد من الخصال الأخرى التي عادة ما يتحلى بها من حسن خلقه مثل الحياء والصدق. أما الحياء، فله صلة وثيقة بحسن الخلق و(الحياء

لا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ¹، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن كان على حياء، فإنه يستحي أن يأتي بما ينافي الأخلاق الحميدة، بل ويحرص دائماً على عدم إيذاء وإزعاج الآخرين لحيائه وحسن خلقه. ومن حسن الخلق الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه عند وقوعه لأن الإنسان غير معصوم من الخطأ وما من إنسان إلا ويخطئ، وصاحب الخلق الحسن يبادر إلى الاعتراف بالخطأ والعمل على تصحيحه بعد وقوعه مما يقوي أواصر التعاون بين كافة الأشخاص وخلافه يولد الشحناء والبغضاء. وكل هذه الأمور تؤكد على أهمية حسن الخلق ودوره في تحسين البيئة الاجتماعية وصقل سلوك الأفراد وجعلها أكثر لطفًا واحترامًا. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)²، حيث يبين هذا الحديث الشريف المكانة السامية للأخلاق وحسن الخلق وأهميتها في ديننا الإسلامي.

أما الصدق فهو خصلة من الخصال التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحسن الخلق، وخلافه الكذب وهو مما ينقض الأخلاق الحسنة. من حسن خلقه يستقبح الكذب ويحب الصدق ولا يرض لنفسه غيره. في الحقيقة، أي إنسان سوي يكره الكذب لأنه عادة سيئة تشوه الوجه الحسن للإنسان ويقلل من احترام الآخرين له إذا ما علموا عن كذبه. وكانت هذه الخصلة من الخصال الممقوتة عند العرب في جاهليتهم، أي أنهم كانوا يكرهون هذه

¹ رواه البخاري.

² أخرجه البيهقي.

الخلصة حتى قبل الإسلام. وعندما جاء الإسلام أقر الصدق وحبب فيه وحذر كافة أتباعه من الكذب وعواقبه الوخيمة.

ومن القصص التي رواها العرب عن حبهم للصدق وكرههم للكذب ما روي عن أبي سفيان قبل إسلامه، عندما كان على الكفر، إذ سأله قيصر، ملك الروم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. في ذلك الموقف، سأل قيصر أبا سفيان عددا من الأسئلة فأجابه أبو سفيان عنها بصدق حتى بدى وكأنه يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أنه لم يجاوز قول الحق. وعندما خرج من لقاء قيصر سأله مرافقوه لماذا قال ذلك الكلام! فأجابهم بقوله الشهير: أتريدون أن تقول العرب كذب أبو سفيان! لقد فضل أبو سفيان قول الصدق على الكذب حتى لا يوصف بهذا الصفة الدنيئة رغم أنه كان بحاجة ماسة لكتمان الحقيقة وتشويه صورة المسلمين لأنه كان عدوا لهم في تلك الأيام، إلا أنه أردف قائلاً: "فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا علي كذبا لكذبت عنه". وفي هذا الكلام إشارة إلى أن حياء أبي سفيان ومخافة أن ينعت بالكذب هو الدافع لقوله الحق وقد قال: الحق رغم أنه لم يرد قوله، وهذا أيضا يبين أن للصدق وقع جيد على الأسماع دائما وتتلقاه الأنفس بانسراح.

ومن الأسئلة التي سألها قيصر لأبي سفيان قوله: هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ ويقصد بذلك قبل الإسلام وإعلان الدعوة إلى الله. وسأله أيضا إن

كان يغدر وكانت أسئلة قيصر تهدف إلى التعرف على شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك سأله عن بعض الأمور التي لا يفعلها الأنبياء وبعض الصفات التي لا تليق بهم صلى الله عليهم وسلم جميعا ومن ذلك الكذب والغدر.

وقد قال قيصر إن من لا يكذب على الناس لن يكذب على الله وإن الغدر صفة لا تليق بالأنبياء، وسأل عما يأمر به فقال أبو سفيان: يأمرنا بالصلاة والصدق والصلة. عندها تأكد قيصر، بناء على كلام أبي سفيان، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رسول أرسله الله سبحانه وتعالى إلى الناس، وعندها قال قولته الشهيرة لأبي سفيان: "إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين"؛ أي سيملك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأرض التي كان فيها قيصر، وهي بلاد الشام.

هناك قصص لا تحصى عن حسن الخلق الذي تحلى به كثير من العرب قبل الإسلام، ولا عجب أن يتحلى به المسلمون لأن الإسلام شدد عليه وحبب الناس فيه وجعله على رأس الخصال الطيبة التي يمكن للمسلمين التحلي بها. ومن هذه القصص ما روي عن عنتر بن شداد العبسي في أبيات من إحدى قصائده عندما قال¹:

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَّتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا
إِنِّي إِمْرُؤٌ سَمِحٌ الْخَلِيقَةَ مَا جِدُّ لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

¹ ديوان عنتره.

تبين هذه الأبيات شدة حياء عنتره واحترامه لجيرانه وكل ذلك نابع من حسن خلقه. لذلك فإن حسن الخلق يحمل النفس على السمو والرفعة ويساعد الإنسان على مغالبة ومكابدة هواه ليكون الإنسان الصالح المصلح الذي يؤثر على غيره بحسن سلوكه وأخلاقه. وبهذا يحترم الجار جاره ويأتمنه على عرضه وماله، إن حسن خلقه، مما يساهم في بناء مجتمعات مثالية يحترم كل فرد فيها أفراد مجتمعه ويكونون سندا وذخرا لبعضهم في الشدائد وعونا في الأفراح والأتراح.

الفصل الثاني

مقومات حسن الخلق

من أعظم الأمور التي تساهم في تهذيب وصقل الخلق هي الإيمان بالله تعالى والإحسان في عبادته، إذ إن المؤمن دائما يكون طيب النفس محبا للخير له ولغيره؛ لأن إيمانه يحثه على فعل ذلك ويحثه على مكارم الأخلاق وأن الإسلام ربط الإيمان بحب الخير لإخواننا من المسلمين، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)¹. علاوة على ذلك، لا يجتمع كمال الإيمان وسوء الخلق في شخص لأن سوء الخلق نقيصة لا تليق بمن كمل إيمانه، ولأن من كمل إيمانه يعلم يقينا أهمية حسن الخلق والصبر وحب الخير للآخرين فيبتعد عن كل الأسباب المؤدية إلى مفسد الأخلاق أو سوء خلقه.

ومن مقومات حسن الخلق حسن التوكل على الله، فهو مفتاح كل شيء جميل ومفتاح كل خير وهو المعين على نوائب الدهر والمسلي للنفوس عند الشدائد، فعندما نتوكل على الله ونحسن الظن به تهون علينا الخطوب والمصائب لأننا نعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وأن ما كتبه الله سبحانه لنا أو علينا سوف يتم دونما نقصان أو تأخير، ومن توكل على الله فقد أحسن العمل. ومن توكل على الله هانت عليه المصاعب لأنه يعلم أن كل ما يحدث له هو من تقدير الله سبحانه وتعالى فإن صبر وحمد الله أجر، وإن جزع لم يستفد شيئا سوى الجزع والاضطراب والقلق النفسي.

¹ رواه البخاري ومسلم.

إن مقومات حسن الخلق عديدة، وهي تشتمل على الكثير من الخصال التي تساعد الإنسان على السمو بأخلاقه مثل الصبر والحلم والتواضع والصفح والتسامح والحكمة والتروي في معالجة الأمور حيث تعد هذه الخصال خط الدفاع الأول لإبراز الوجه والخلق الحسن للإنسان. وإن الإنسان يُعرف وقت الشدائد أكثر من غيرها وفي المواضيع التي تحتاج إلى رباطة جأش، ففي مثل هذه المواقف يظهر المعدن الحقيقي للإنسان ويزر دور حسن الخلق بمساعدة الإنسان على القيام بالتصرفات المحمودة والصحيحة خلال المواقف التي يتعرض لها. إن استطاع الإنسان أن يحلم أو يصبر ويكظم غيظه في مثل هذه المواقف، خاصة المواقف التي لا تسره، فقد أتى بخصال تدل وتؤكد على حسن خلقه.

إن حسن التعامل مع الوقائع والأحداث تبين مرونة الإنسان وتميزه في التعامل مع الأمور الطارئة، فالحلِيم هو الرابح وغالبا ما تكون كفته هي الراجحة وغالبا ما يكون الطرف الآخر من المعادلة وهم الطائشون والمتسرعون، الذين ينتابهم الغضب الشديد أثناء هذه الوقائع، هم الخاسرون وهم أكثر الناس عرضة للأخطاء وكثيرا ما يخطئون التصرف لأن الإنسان يغلب عليه سوء التصرف وقلة التفكير في عواقب الأمور أثناء الغضب. وهنا أيضا يبرز دور حسن الخلق في تهذيب السلوك وتعزيز التسامح والصبر الذي قد يبلغ منتهاه خاصة عندما يصبر الإنسان على الأذى من قبل الناس ويكون صبره هذا حلماً لا ضعفاً،

أي أن هذا الإنسان يستطيع أن ينفذ غضبه على من أغضبه لكنه يترك ذلك بسبب حسن خلقه وحبه لما وعد الله به الصابرين والكاظمين الغيظ.

من أدرك هذه الأمور كان أصبر على الخطوب وأقوى نفسا للتغلب على العقبات ومثال رابع على كافة الأصعدة في الدنيا والآخرة. فربحه العاجل هو المتابعة وإن توالى العقبات، إذ إن التوفيق والنجاح سيأتي بعدها، فيكون أكثر إصرارا وتحديا على تحقيق ما يطمح إليه، وجزاؤه الآجل عند ربه عظيم إذ قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)¹. والمتوكلون على الله جل وعلا هم أقرب الناس إلى النجاح لأنهم لا ييأسون، بل يتابعون المسير نحو القمة والنجاح ولن تثنيهم العقبات والإخفاقات المؤقتة لأنهم على يقين بأن استمرار المحاولات ستتوج بالنجاح عاجلا أم آجلا.

من ناحية أخرى، حسن الخلق، إن لم يجبل الإنسان عليه، أي أن الله سبحانه وتعالى مَنَّه بحسن الخلق منذ الصغر واستمر على ذلك، فهذه السجية العظيمة يمكن تحصيلها، ولكن ليس بسهولة إذ إنها تحتاج إلى الصبر ومجاهدة هوى النفس خاصة في بداية الأمر لمن لم يتحلل بها من قبل وأراد أن يعدل من سلوكه وأن يُحسِّن من خلقه.

¹ سورة الزمر: (10).

ومن رام هذه السجية العظيمة وجب عليه الأخذ بالأسباب التي تمكنه منها كالبيئة المناسبة وبشكل خاص الصحبة الصالحة فالمرء من جلسيه، كما قال طرفة بن العبد¹:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

فعندما يجالس الشخص أشخاصا آخرين لا يتمتعون بحسن الخلق يتوجب عليه نصحهم والعمل على تحسين أخلاقهم وإن لم يفلح فعليه إما هجرهم أو تقليل اللقاء بهم حتى يتمكن من مجاهدة نفسه ويستعين بالبعد عنهم على التغلب على هواه. ومن ذلك، تصبير النفس بالفوائد العظيمة التي يحققها حسن الخلق بما في ذلك الدنيوية والأخروية. ومن الأمور المهمة، تعويد النفس على عدم الجزع وتقويتها عند مواجهة الصعاب إذ إن ما قدر الله سبحانه سيحدث شئنا أم أبينا ولم يغير عدم صبرنا أو جزعنا من النتائج.

ومن مقومات حسن الخلق أيضا استبدال جلساء السوء بجلساء ممن حسنت أخلاقهم حتى يعينونه على المهمة التي أقدم عليها ويكونون سندا له، وذلك عكس جلساء السوء فإنهم قد يؤثرون عليه سلبا وربما يثنون عنه إتمام ما شرع به من رحلة نحو حسن الخلق، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)².

¹ ديوان طرفة بن العبد.

² رواه أحمد.

ولا يخفى على أحد تأثير الأصدقاء على بعضهم فقد يُنجي الصديق صديقه وقد يُهلك الصديق صديقه فيكون من الأشقياء في الدنيا والآخرة ومثال ذلك ما حدث لعقبة بن أبي معيط. لقد كان عقبة صديقا لأمية بن خلف الذي كان غائبا في الشام حين أسلم عقبة، وعندما عاد أمية وبلغه أن عقبة قد أسلم غضب غضبا شديدا وقال له لا يرضيني إلا أن تشتم محمدا، صلى الله عليه وسلم. وبعد أن فعل عقبة، عدو الله، ما طلبه صديقه كان قد انقلب من نعمة الإسلام إلى جحيم الكفر وقُتِل بعد أن أسر في غزوة بدر وأنزل الله جل وعلا به الآية الكريمة: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يُؤَيَّلَتِي لِيَتَّيَّنِي لَمَّ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا)¹.

وقد يكون الصديق الصالح سببا في هداية صديقه أو تثبيته على الحق ومناصرتة كما حدث مع الفتية الذين ذكرهم الله جل وعلا في سورة الكهف، فالله سبحانه وتعالى خلّد صحبتهم في القرآن الكريم، بل حتى كلبهم الذي تبعهم ذكّر معهم. لمّا ضاقت عليهم الأرض لما واجهوه من ظلم وخوف على إيمانهم بسبب الملك الظالم قرروا أن يهجروا بيوتهم في القرية وتوجهوا إلى الكهف فجعلهم الله سبحانه تعالى آية للعالمين إلى قيام الساعة. إن أول أمر عملوا به هو التوكل على الله، إذ قال جل وعلا: (إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى

¹ سورة الفرقان: (27-28-29).

الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا¹. وبعد التوكل على الله جاءهم المدد (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)²، وبعد الإيمان زادهم الله تعالى هدى (إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى)³. لقد أدرك الفتية أن خلاصهم من الظلم هو بمفارقة الظالمين لذلك قالوا: (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)⁴.

ومن القصص التي تؤكد التأثير الإيجابي لصحبة الأخيار قصة مالك بن الربيع وسعيد بن عثمان بن عفان رحمهم الله تعالى جميعا. كان لمالك بن الربيع قصة عجيبة، فقد سحب اللصوص وقطاع الطرق وعمل معهم في هذه الأعمال الدنيئة حتى أنه صاحب شظاظة الظبي الذي ضريت العرب به المثل في السرقة، فقالوا: "ألص من شظاظ!". وكانت هذه عادة العرب إذا اشتهر أحدهم في أمر ضربوا له مثل كقولهم: "أكرم من حاتم!" و"أوفي من السموأل!". لقد اشتهر مالك بن الربيع بقطع الطريق حتى أصبح الشخص المطلوب الأول في زمانه وذلك لعدد من الولاة كوالي مكة والمدينة مروان بن الحكم ووالي البصرة زياد بن أبيه وغيرهم.

ولكن من شاء الله له الهداية هياً له الأسباب التي تعينه على ذلك، فبعد طلب الولاة لمالك بن الربيع ضاقت عليه الأرض بما رحبت حتى قابله سعيد بن عثمان بن

1 سورة الكهف: (10).

2 سورة الكهف: (14).

3 سورة الكهف: (13).

4 سورة الكهف: (20).

عفان، رضي الله عنهم، وأقنعه بأن هذه الأفعال لا تليق بفارس مثله ثم اصطحبه معه في
الجهاد وكان من أبرز المشاركين في فتح بلاد ما وراء النهر وتحديدًا بخارى وسمرقند اللتين
أصبحتا فيما بعد من أبرز المراكز الإسلامية والثقافية، ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا.

الشاهد هنا أن الالتزام بتعاليم الدين قد غير حياة هذا الفارس رأسًا على عقب
وتحول من قاطع للطريق ومفسد في الأرض إلى مجاهد وفتح قل مثيله. وهو أيضا الشاعر
المجيد وتعتبر مرثيته لنفسه من أجود قصائد الرثاء في الأدب العربي، وقال فيها¹:

أَلَمْ تَرْنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَقَّانَ غَازِيَا
وَأَصْبَحْتُ فِي أَرْضِ الْأَعَادِيِّ بَعْدَمَا أَرَانِي عَنِ أَرْضِ الْأَعَادِيِّ قَاصِيَا
دَعَانِي الْهَوَى مِنْ أَهْلِ أَوْدٍ وَصُحْبَتِي بِذِي الطَّبَسِينَ فَالْتَفْتُ وَرَائِيَا
أَجَبْتُ الْهَوَى لَمَّا دَعَانِي بِزَفْرَةٍ تَقَنَعْتُ مِنْهَا أَنْ أَلَامَ رِدَائِيَا
أَقُولُ وَقَدْ حَالَتْ قُرَى الْكُرْدِ بَيْنَنَا جَزَى اللَّهُ عَمْرًا خَيْرَ مَا كَانَ جَازِيَا

توفي رحمه الله تعالى خلال خلافة معاوية، رضي الله عنهم جميعا.

ومن مقومات حسن الخلق مجاهدة النفس والشيطان، فكلاهما يدعوان إلى اتباع
الهوى وما ترتضيه النفس، وإن كان في ذلك المعاصي. وعلى الإنسان أن يحذر ويراقب

¹ ديوان مالك بن الربيع.

نفسه لأن الله جل وعلا يراه ويسجل عليه كل صغيرة وكبيرة وسيحاسبه على ما اقترفت يده. وقد أحسن القحطاني، رحمه الله تعالى، عندما قال¹:

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرَبِّتِ فِي ظُلْمَةٍ
وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الْعِصْيَانِ
فَاسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا
إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي

فالنفس على الأغلب أمارة بالهوى وما يشتهيها الإنسان، كما قال الله جل وعلا في القرآن الكريم: (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)². أما الشيطان فهو يعمل على تخذيل الإنسان عن كل خير وعن كل عمل صالح، فلا بد من الجِد في مجاهدة النفس والشيطان لتحقيق ما نصبوا إليه.

وعلى المسلم أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى يراه وأن ملائكته تدون كل حركته، حسنة كانت أم سيئة، فإذا استشعر المسلم تلك الأمور يرقى بإيمانه حتى يجتنب ما حرم الله تعالى ويفعل ما أمر به ليسعد في الدارين، الأولى والآخرة. وهناك أيضا بعض النقاط التي لا بد من توضيحها في مجاهدة النفس، وهي أن الأمور دائما تبدأ صعبة في البداية، ولكن مع المداومة عليها تصبح من الأمور الاعتيادية اليسيرة التي لا تحتاج إلى المشقة. ما نحتاجه فقط هو التوكل على الله وحسن الظن به والعمل على تقوية إيماننا وزيادته لنكسب رضا ربنا سبحانه وتعالى.

¹ نونية الإمام القحطاني.

² سورة يوسف: (53).

وهناك العديد من المقومات الأخرى لحسن الخلق مثل الأمانة والأناة وهن من الخصال التي حث عليها الإسلام، ومن الخصال الدالة على حسن الخلق. فالأمانة هي حفظ الحقوق وردها إلى أهلها والصدق والإخلاص في العمل والوفاء بالعهود والمواثيق، وضدها الخيانة التي هي خصلة ممقوتة لا تليق بمؤمن ولا مسلم. وللأمانة دور عظيم في زيادة تماسك المجتمع وتوثيق الأمن. أما الأناة فهي ضد العجلة وهي من الحلم ومن ذلك التفكير في عواقب الأمور وتعني أيضا التحقق من الأمور والابتعاد عن العجلة وإصدار الأحكام أو الآراء قبل التفكير بالأمر جيدا.

عند التفكير في هذه المقومات نجد أن الإسلام يحث عليها جميعا ويدعو المسلمين إلى التمسك بها لأن هذه المقومات تصنع الرجال وتجعل منهم أناسا صادقين، ونافعين، وناصحين لأنفسهم، ولغيرهم. وفي الوقت ذاته، تساهم هذه المقومات في تنقية النفوس وإعانة الأفراد للتخلي بحسن الخلق وتجعل منهم أناساً محبين للخير وصادقين قولاً وفعلاً وممن يتكون بصمة إيجابية في كل ناد من أندية مجتمعاتهم وكذلك المساهمة في نهضتها وبنائها.

الفصل الثالث

ثمرات حسن الخلق ودوره في بلوغ الدرجات العلا

لحسن الخلق ثمرات عظيمة وفضائل جليلة منها العاجلة، أي ما يتم قطافها في الحياة الدنيا ومنها الآجلة، أي ما يتم قطافها في الآخرة. أما في الحياة الدنيا، فإن من حسن خلقه فهو أقرب الناس إلى قلوب الناس وهو أول من يكسب ود واحترام الآخرين وهو الشخص الموقر الذي يحترمه الناس ويتمنوا قربه ومصاحبته. كما أن حسن الخلق يشرح صدور الناس ويغرس فيهم القبول لمن حسن خلقه. أما في الآخرة فجزاؤه أجل وأعظم؛ لأن حسن الخلق هو الطريق إلى بلوغ الدرجات العلا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمنَ لَيُدرِكُ بحُسنِ خُلُقِهِ درجةَ الصائمِ القائمِ)¹. في هذا الحديث العظيم، إشارة إلى فضل حسن الخلق إذ إن من حسن خلقه يبلغ درجة المكثرين في العبادات وما يصاحبها من جهد ومشقة خلال الصيام والقيام، فيكون وإياهم سواء في الدرجة رغم أنه لم يبذل الجهود التي بذلوها، ويكون قد بلغ ذلك بحسن الخلق الذي حباه الله جل وعلا إياه.

إن حسن الخلق من خصال الأنبياء صلى الله عليهم وسلم جميعا وقد مدح الله جل وعلا خلق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال في محكم تنزيله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٍ)². والأنبياء هم خير البشر ويجدر بباقي البشر التأسي بهم والسير على خطاهم والتحلي بالخصال التي كانوا يتحلون بها قدر ما أمكن. إنهم هم القدوة الحقيقية لباقي

¹ رواه أبو داود.

² سورة القلم: (4).

الناس ومن أحبهم واقتدى بهم وسار على نهجهم فقد أفلح ونجا، وربما كان رفيقهم في الآخرة. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عندما سأله رجل عن الساعة ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل، فقال: (وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟)، فقال الرجل: (لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)¹.

لذلك فمن تحلى بحسن الخلق فقد تحلى بسجية عظيمة وهو على خير كبير، ولكن الإنسان دائما يطمح إلى ما هو أعلى وإلى الأفضل، فإن بلغ الإنسان درجة الصائم القائم بحسن خلقه، فلا زال هناك متسع لزيادة هذه الدرجة عبر تجارة الدنيا والآخرة. وهنا يمكن لمن حسن خلقه، وحصل على الخير الكثير دون تعب ولا مشقة، أن يكسب المزيد من الخير والدرجات العالية من خلال التفكير في الأعمال الصالحة وأي من هذه الأعمال التي يحصل من خلالها على أكثر الأجر بأقل الجهد والوقت، وهذا هو المعنى الحقيقي للنجاح. إنه تحقيق الهدف على الوجه الأكمل بأقل الوقت والجهد سواء في أمور الدنيا أو الآخرة. في أمور الدنيا، يركز الإنسان على تحقيق أهدافه بأقل جهد ووقت وهذا هو النجاح الدنيوي، ومن باب أولى أن يفكر بالفوز الأعظم وهو فوز الآخرة، واللبيب من عمل واجتهد للفوز بكليهما.

¹ رواه البخاري ومسلم.

على المسلم أينما كان أن يفكر دائما بحياته وآخرتة وكيف يحسن العمل في الأولى ليستعد للثانية. ويجب أن تكون همة المسلم عالية وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)¹. إن فضل الله عظيم وعطاؤه جليل ورُبَّ دعوة في ساعة إجابة ترفع الإنسان إلى الدرجات العلاء، فإن هذا الإنسان أعظم الطلب بهذه الدعوة فقد كان من المحظوظين الفائزين. وعلى هذا يجب تعظيم الدعاء والطلب من الله جل وعلا الأمور العظيمة والدرجات الرفيعة خاصة الفردوس، فما ذلك على الله بعزيز ولا ندري أي دعوة تجاب، وإنما لنعلم أن الله جل وعلا لا يرد داع خائبا.

ولحسن الخلق ثمرات أخرى كثيرة منها تعمير الديار والزيادة في الأعمار كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصَلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ، يُعْمَرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ)². فحسن الخلق يعمر الديار لأن من حسن خلقه يحب الآخرين ويحب التعاون والعمل معهم ومساعدتهم على بناء وتعمير المناطق التي يعيشون بها فتزدهر بهم البلاد وتُحترَم وتُحفظ بهم حقوق العباد. وفي الحديث إشارة أخرى إلى أن

¹ رواه البخاري.

² أخرجه أحمد.

حسن الخلق يطرح البركة في الأعمار ويزيدها. عندما تتوفر هذه الأمور في بلد فإنه يسوده الأمن والطمأنينة ويأمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم وهذا مما يساهم في تعمير البلاد ومع حسن الخلق تقل النزاعات والخصومات فيسود الأمن وتتناقص الاضطرابات والفتن التي غالبا ما تودي بحياة الأفراد.

من حَسُنَ خلقه جدير به أن يفكر بمزيد من الأعمال الصالحة والإكثار من النوافل بعد أداء الفرائض، فالفرائض هي الأهم والأولى ودونها لا تصح النوافل. ومن النوافل ذات الأجر العظيم المداومة على الذكر ومنها أيضا صلاة الوتر في كل ليلة. ويجب على المسلم ألا يغفل عن النوافل لأننا عندما نقوم بالفرائض فإنه يصاحب أداءها نقص في إتمامها، وتكمن أهمية النوافل في إتمام الفرائض، فقد جعلت لتكمل ما نقص من الفرائض وتعين المسلمين على رفع درجاتهم. وهذه هي تجارة الآخرة فالتاجر الحاذق هو الذي يركز على تحقيق أفضل الإنجازات، وبنفس الوقت، أيسرها أداء. فإذا كان التاجر يركز على تجارة الدنيا فإن تجارة الآخرة أهم وأبقى؛ لذا يجب أن نفكر بها أكثر مما نفكر في تجارة الدنيا أو مثلها على أقل تقدير، فهناك الكثير من الأعمال التي يمكن أن ننجزها بسهولة شديدة وقد تميزت بعلو الأجر ومضاعفة الثواب مثل الذهاب باكرا إلى صلاة الجمعة والمداومة على أذكار ما بعد الصلاة وأذكار الصباح والمساء والذكر بشكل عام بكافة الأوقات والأماكن

والدعاء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وغير ذلك من النوافل.

وعلى المسلم أيضاً أن يسخر تجارة الدنيا لصالح تجارة الآخرة، كمن رزق مالاً كثيراً، فإنه قد أوتي ميزةً لم يؤتها كثير من الناس حيث يستطيع التصديق ببعض ماله ومساعدة المحتاجين فيكون بذلك قد استفاد من تجارة الدنيا وسخرها لرفع درجته في الآخرة.

إن حسن الخلق، الذي يُبْلَغ من تحلى به الدرجات العلا في الآخرة، فإنه يرفع من شأن المؤمن في الدنيا أيضاً، فيكون من أفضل المؤمنين كما ورد في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما (أفضل المؤمنين أحسنهم خلقاً)¹. فأكرم بها من سجية عظيمة وصفة جليلة تسمو بصاحبها حتى تبلغه معالي الأمور في الدنيا والدرجات العلا في الآخرة، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبِضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ)². ففي هذا الحديث جعل البيت الذي في أعلى الجنة لمن حسن خلقه، ويكون هذا طبعاً مع أداء ما فرضه الله جل وعلا ودون ذلك لا ينفعه شيئاً. فمن حسن خلقه وعلت همته والتزم بما كتبه الله تعالى عليه فقد أوتي خيراً كبيراً ونال ثماره العاجلة في الدنيا وسيكون جزاءه عند ربه في الآخرة أجلاً وأكرم. فهنيئاً

¹ أخرجه ابن ماجة.

² رواه أبو داود.

لمن حباهم الله سبحانه وتعالى بهذه السجية المباركة التي جعلت لهم القبول والمودة في
البلاد وبها يرفع درجاتهم رب العباد.

بناء على ما تقدم، لحسن الخلق ثمرات عظيمة تعين من تحلى به على السمو
والرفعة في الدنيا والآخرة، كما أن حسن الخلق يساهم في توطين القبول لمن حسن خلقه
بين الناس المقربين منه ومن يعرفهم ويختلط بهم. إن سجية هذه ثمراتها تستحق منا
العناء والعمل الجاد لبلوغها، بل والعمل على تحسينها بشكل مستمر ودون هوادة. فمن
رغب في حسن الخلق وعمل على تحقيقه فإنه بالغه، ولكن عليه التحلي بالصبر لأن
المطالب العظيمة لا تتحقق بسهولة إذ لابد من الجد في طلبها والإصرار على تحقيقها.

الفصل الرابع

حسن الخلق يُؤَلِّدُ الراحة النفسية

لحسن الخلق أثر على الراحة النفسية وتهدئة خواطر الأفراد لأن من حسن خلقه غالباً ما يتجاوز عن أخطاء الآخرين ويتغافل عن زلاتهم مما يقلل من فرص الغضب والشحناء التي قد تحصل نتيجة تتبع زلات الآخرين ومختلف أمورهم. ومن حسن خلقه عادة ما يركز على إصلاح نفسه والتماس الأعذار لمن أخطأ في حقه ويكون أبعد الناس عن الأمور التي تسبب التوتر والقلق النفسي. ومن هذا المنطلق، على المسلم أن يعلم أن كل إنسان عرضة للخطأ، وأنه لا أحد معصوم منه ومن تتبع أخطاء وزلات الآخرين أتعب نفسه وحمّلها عبئاً ثقيلاً، لأنه لا بد من وجود هذه الأخطاء به وبغيره ويجدر بالإنسان ألا يتابع صغائر وسفاسف الأمور، بل يحلم ويتجاوز وينزه نفسه حتى عن سماعها. وإذا ما تحلى المرء بهذه الصفات طابت نفسه وتحسنت نفسيته ومن ثم سيشعر بالراحة النفسية والطمأنينة.

ومن عمل بمقتضى هذا فقد هذب نفسه وأراحها وعودها على محاسن ومعالي الأمور وأصبح ممن يحب الناس مجالسته والتحدث إليه خاصة أن من حسن خلقه يربأ بنفسه عن الغيبة أو الإساءة لمن صاحبه أو عاشروه. وحسن الخلق يصلح باطن الإنسان كما يصلح ظاهره لأنه لا يوجد عنده ما يخفيه ولأنه يكره أن يتكلم في غياب أي شخص لأن هذا لا يتناسب وأخلاقه الحميدة. من حسن خلقه أيضاً يطيب كلامه ويجتنب الفاحش من القول، وهذا الأمر يمكن ملاحظته على كثير من الناس وخاصة في المجالس

عندما يتكلم شخص ما ببعض الكلام غير اللائق فوقع هذه الكلمات يلاحظ مباشرة على وجوه من حسن خلقهم إذ يبدو على وجوههم الامتعاض وكراهية سماع مثل هذه الكلمات.

وإذا ما لاحظ صاحب الكلمات هذا الصدى على وجوه جلسائه فلا بد له من محاولة إصلاح ما أفسده بكلمات أخرى لائقة تُلطف الأجواء وتعيده إلى جو الصحبة أو الجلسة التي كان فيها. وهذه من فوائد الصحبة الصالحة لأن من يقع في مثل هذا الموقف يحذر من الوقوع بمثلها في المجالس القادمة ويبدأ يراقب كلامه وتصرفاته حتى يحسن خلقه ويكون جديراً بمجالسة أولئك الأشخاص المهذبين، لأن الجليس الصالح له تأثير إيجابي دائم على الأشخاص الآخرين، كما قال لبيد بن ربيعة رحمه الله تعالى¹:

ما عاتبَ الحرَّ الكريمَ كنفسِهِ والمرءُ يصلحُه الجليسُ الصَّالحُ

وعلى ذلك، يوجد فرق كبير بين جلساء الخير وجلساء السوء، إذ إن نفوس جلساء الخير طيبة ويشعر من يجلس معهم بالراحة النفسية، بل ويشتاق إلى مجالستهم إذا ابتعد عنهم. أما جلساء السوء فما يتذكرون من مجالستهم سوى الشحناء والمجادلة وحدة النقاش والإصرار على الآراء حتى يكره أحدهم مجالسة الآخر. فالفرق بين الفريقين عظيم من ناحية الراحة النفسية فالفريق الأول يتميز بالهدوء والطمأنينة، أما الفريق الثاني

¹ ديوان لبيد بن ربيعة.

فيسوده التوتر والشحناء وأحيانا قلة الاحترام بين أفراد هذا الفريق بسبب المزاح الثقيل والكلام النابي الذي ربما يستخدمونه في بعض الأحيان. أمر آخر شديد الأهمية، وهو الفائدة التي يحصل عليها من يجالس الصالحين ومن حسن خلقهم إذ لا تخلوا مجالسهم من الفوائد سواء كانت أخلاقية أو علمية.

لذا ينبغي على كل إنسان أن يختار المجالس الصالحة والمناسبة التي يمكن أن يستفيد منها وقد تكون هذه الفائدة أدبية أو علمية أو شرعية وقد تؤثر هذه المجالس على أخلاق الأفراد فتصلقها وتحسنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلِ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً)¹. فالمجلس الصالح له فوائد كثيرة متعددة تعود بالنفع على كافة الجلساء ومجالس السوء لا يستفيد جلساؤها سوى المشاحنات والغيبة والإثم كلما خاضوا بما هو محرم.

إن حسن الخلق من خصال العظماء الذين عليت همهمهم، فلا يلتفتون إلى صغائر الأمور، بل ييمنون أبصارهم نحو عظامها لأن حب الخير والإنجازات العظيمة قد غرس في أنفسهم غرسا فيتطلعون إلى السمو بأخلاقهم وأخلاق غيرهم ودائما ما يطمحون إلى

¹ متفق عليه.

أهداف نبيلة يعود نفعها على مجتمعاتهم وأوطانهم فَسَمَوْا بذلك فوق كل المصالح الشخصية فطابت أنفسهم وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل خدمة أمتهم ورفع شأنها وصلاح البلاد والعباد، وقد أحسن المتنبي عندما قال فيهم¹:

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

فالعظام مقاصدهم عظيمة وأهدافهم كبيرة وهم لا يتطلعون إلى الأمور الصغيرة التي قد يتطلع إليها كثير من الناس. والمقصود في بيت المتنبي أن الرجال العظام مهما تعاظمت إنجازاتهم يرونها دون المستوى ويتطلعون لما هو أعلى وأن الصغار يرون الإنجاز الصغير التافه على أنه إنجاز عظيم لا يقدر بثمن. والرجال العظام همهم دائما أكبر من بقية الناس كالعالم الراسخ في العلم فإنه لا يفكر بنفسه فقط، بل يفكر دائما بصلاح أمتهم ومجتمعه وصلاح من حوله وهؤلاء هم العلماء الذي يستحقون التبجيل والإجلال، لأنهم استشعروا نعمة الله جل وعلا عليهم فارتاحت نفوسهم وعملوا على نقل هذا الشعور وتلك الراحة النفسية لغيرهم. مثل هؤلاء لا تهمهم أمور الدنيا وهمهم الأكبر هو صلاح أمتهم؛ لذا أصبح همهم هم أمة وليس فردا وبمثل هؤلاء ترتقي الأمم، وبغيابهم لن تكون الأمور على ما يرام وربما يبدأ المجتمع بالتفكك ومواجهة مصاعب ومشاكل لا حصر لها؛ لأن غيابهم يفتح الباب واسعا لانتشار الجهل.

¹ ديوان المتنبي.

حسن الخلق يساهم أيضا في تعزيز الراحة النفسية بين من حسنت أخلاقهم عبر مراقبة السلوك والتصرف والتركيز على السلوك الحسن لتلافي كافة التصرفات السلبية التي قد يندم عليها الإنسان فلا تصدر عنهم سوى التصرفات المحمودة التي يحمدون الله جل وعلا عليها كلما تذكروها.

من حسنت أخلاقهم كانوا أقدر على مواجهة العقبات وأقوى نفسا وأصبر من غيرهم على التحديات وهم مستعدون لكافة النتائج ويتلقونها بصدر رحب ونفس طيبة لأنهم متيقنون بأنه لا يصيبهم إلا ما كتبه الله سبحانه وتعالى عليهم. وهم يعلمون أن هذه الدنيا لا تصفوا لأحد وأنه لا بد من مواجهة الأمور غير السارة وأن طيب العيش قد يعقبه شدة وأن الشدة قد يعقبها رخاء وطيب عيش، كما قال أبو البقاء الرندي رحمه الله تعالى¹:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُعَرَّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ

فالأيام تتقلب وتتغير وكذلك الحوادث وكل إنسان لا بد أن يواجه كثيراً من الأمور التي لا تسره وهذه سنة الحياة كما خلقها الله سبحانه وتعالى، ففيها فقدان الأحبة وفراقهم وفيها الربح والخسارة وفيها أيضا الكثير من الأمور السارة، ولكنها لم ولن تصفو لأحد وختماها موت. واللبيب هو الذي يعمل ويستعد لذلك اليوم الذي سيفارق فيه هذه الدنيا

¹ ديوان أبي البقاء الرندي.

وسيلقى بعده حساباً عادلاً لا ظلم فيه، فإن عمل خيراً في هذه الدنيا فقد نجا وأفلح وإن عمل خلاف ذلك فقد ظلم نفسه وأهلكها، ومن ثم سيكون مصير الناس جميعاً إلى جنة أو نار. ونسأل الله سبحانه تعالى السلامة لنا ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات.

من جهة أخرى، لحسن الخلق دور كبير في تعزيز الراحة النفسية بين من تحلى به لأنه يقلص العداوات والمشاحنات والخصومات بين الناس. ومن حسن خلقه قلما ينخرط في مشاكل أو سجالات مع الناس المحيطة به، بل حتى عندما تحدث هذه الأمور فإنه يعمل على امتصاصها والتغلب عليها وهو أكثر مرونة من غيره لما يتمتع به من قوة الشخصية والراحة النفسية التي يتحلى بها نتيجة حسن خلقه. أما فيما يتعلق ببعض التصرفات غير الملائمة من بعض الأشخاص، فمن حسن خلقه يتغافل عنها وهو طيب النفس لأنه اعتاد على مسامحة الآخرين وغض الطرف عن أخطائهم وزلاتهم فارتاحت نفسه وحفظ الود بينه وبين أولئك الأشخاص.

لذلك، يلعب حسن الخلق دوراً مهماً في حياتنا النفسية والاجتماعية ويعيننا على التغلب على كافة المصاعب ويساعدنا على احترام الآخرين وكذلك احترام الآخرين لنا. ومتى ما تحلى الناس بهذه الخصال الجيدة طابت حياتهم وشعروا بالسعادة، بل ويعملون على نشر هذه السعادة فيمن حولهم، فيكونون نافعين لأنفسهم ولغيرهم وهذه من أهم

القواعد التي تبني عليها المجتمعات على أسس سليمة قادرة على الصمود بوجه كافة التحديات والمحن.

الفصل الخامس

الشباب وحسن الخلق

مرحلة الشباب من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان لأن الشاب يشهد فيها تغيرات بيولوجية متسارعة يكون قد انتقل خلالها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ حيث يتشكل سلوكه وأخلاقه في هذه المرحلة أكثر من غيرها فكَأَنه يضع أساسات حياته لتتسم بعدها بالنجاح والسعادة أو بالفشل والتعاسة. تتميز هذه المرحلة أيضاً بفرط النشاط والإمكانيات والقدرات الكبيرة التي يجدر بالشباب أن يستغلوها ويوجهوها في الاتجاه الصحيح، فإن فعلوا ذلك فإنه سَيَتَّكُونُ جيل قوي قادر على مواجهة التحديات المستقبلية وتحمل المسؤوليات ليواصل مسيرة البناء التي بدأها الآباء والأجداد، وإن لم يكونوا كذلك فَسَيَتَّكُونُ جيل ضعيف غير قادر على تحمل المسؤوليات وبفشلهم قد يفشل المجتمع ككل. ومن هنا يبرز الدور الحيوي للشباب فإن تم إعدادهم كما يجب ستسير أمور المجتمع على ما يرام وتستمر الحياة الناجحة، وبنجاحهم تنجح المجتمعات.

من هذا المنطلق، ركز الإسلام على هذه المرحلة كما ورد في الحديث النبوي حول السبعة الذين يظلهم الله سبحانه وتعالى في ظله يوم القيامة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ: اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ

فَأُحْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ¹. جاء ترتيب الشباب في الحديث بعد الإمام العادل وهذا يبين أهمية مرحلة الشباب وصلاتهم في هذه المرحلة التي قد ترسم ما تبقى من حياتهم وكما قيل: "من شب على شيء شاب عليه". ولأن هذه المرحلة من أخطر مراحل حياة الإنسان وفيها الصبر على المغريات أو الانجراف والانغماس فيها؛ لذا يتطلب هذا الأمر جهودا عظيمة للمحافظة على الاستقامة وسلوك طريق النجاح، ولأن الشباب يحتاجون إلى الصبر ومواجهة مغريات الحياة في هذا المرحلة وُعدوا بعظيم الأجر يوم القيامة.

إن حسن الخلق والتزامه في هذه المرحلة الحيوية ليس بالمهمة السهلة على الشباب خاصة في زماننا الحالي لكثرة المغريات والأماكن التي ينتشر فيها الفساد والملهيات مما يجعل المهمة أصعب بالنسبة للشباب خاصة غير المتزوجين منهم. ومن الواجبات التي تقع مسؤوليتها أولا على الآباء والأمهات ومن ثم الدولة وكافة الجهات المعنية، هي توجيه الشباب وحثهم على هذه الخصال الطيبة وعلى رأسها حسن الخلق لأنها تساعدهم على حفظ حياتهم الكريمة وصحتهم النفسية والجسدية وتهيئهم لتحمل المسؤولية في المستقبل القريب.

¹ رواه البخاري.

يُعدُّ حسن الخلق خط الدفاع الأول للحفاظ على الشباب والأخذ بأيديهم ليتغلبوا على مغريات الحياة ولا تتوقف هذه المغريات عند الأمور غير الأخلاقية إنما تتعدى ذلك إلى كافة المغريات والملهيات التي قد تدمر حياة الشباب المستقبلية ومنها قضاء أوقات طويلة جداً على الأجهزة اللوحية متجاهلين الأضرار الصحية التي تسببها هذه الأجهزة خاصة من إجهاد للعيون، إضافة إلى الصداع وآلام وأمراض العمود الفقري والرقبة نتيجة الجلوس في وضعية واحدة لأوقات طويلة.

تعد معظم هذه الأجهزة والتصفح الطويل للإنترنت والمواقع المختلفة مضيعة للوقت وإنها أيضا تقتل المواهب الحقيقية التي قد يستفيد منها أبنائنا في المستقبل، كما تؤثر كثيراً على حسن الخلق والتربية لأنها تسبب عزلة للشباب والأطفال على حد سواء، لذلك نرى كثيراً من الأطفال يعانون من أمراض جديدة وخطيرة لم نكن نسمع بها من قبل مثل التوحد.

لا شك أن الإدمان على هذه الأجهزة يؤثر سلباً على تحصيل الشباب العلمي لأنهم يقضون معظم وقتهم في متابعة أمور لا فائدة منها، هذا إن لم يكن لها مفعولاً عكسياً على حياتهم بما في ذلك الوزر الذي يحملونه جراء الاستخدامات الخاطئة ومن ذلك السب والشتم واللعن على مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها. على الشباب أن يدركوا أن متعة هذه الأجهزة زائفة وستنتهي، ولكن نتائجها السلبية مثل المشاكل الصحية قد ترافق

الشباب طيلة حياتهم وإذا ما حملوا وزراً على أفعالهم هذه فسيبقى كذلك الوزر، ويظنون بذلك أنهم يتمتعون بحياتهم على الوجه الأكمل، ولكن الحقيقة خلاف ذلك كما قال ابن الوردي رحمه الله تعالى¹:

إِنَّ أَهْيَ عَيْشَةٍ قَضَيْتُهَا ذَهَبَتْ لَذَائُهَا وَإِثْمٌ حَلَّ

فما يتوجب علينا فعله هو تحصين الأبناء من خلال غرس الأخلاق الحميد في نفوسهم وأن نعلمهم الاعتدال في كل شيء فلا إفراط ولا تفريط، بل هو حد وسط بين الاثنين. ولا نقصد، من خلال هذا الكلام، أن على الشباب أن يتخلوا عن هذه الأجهزة إنما قصدنا الاعتدال في استخدامها، لأنه يمكن للشباب أيضاً أن يستفيدوا فائدة عظيمة من هذه الأجهزة، ولكنهم يحتاجون إلى الاعتدال والتركيز على ما ينفعهم إضافة إلى الحاجة الماسة إلى توعيتهم حول خطر بعض المواقع الإلكترونية الضارة فكم سمعنا من جريمة قتل أو شخص انتحر أو قتل نفسه نتيجة متابعة أو ممارسة أو مشاهدة بعض الألعاب الإلكترونية على مواقع الإنترنت.

إن الحفاظ على الأبناء وتربيتهم التربية الصحيحة هي من أوجب واجبات الآباء ويجب عليهم بذل كل جهد ممكن لمساعدتهم ليكونوا ذخراً لوالديهم أولاً ولأوطانهم ثانياً. وإذا تمكنا من بناء جيل ناجح يتمتع بحسن الخلق، فإننا سنضمن جيلاً قويا قادراً

¹ ديوان ابن الوردي.

على إدارة كافة شؤون الحياة في المستقبل، فشباب اليوم هم رجال الغد وهم أحوج ما يكونون للنصيحة في هذا المرحلة من حياتهم فإن استقاموا في هذه المرحلة فقد سلكوا الطريق الصحيح وعلى الأرجح ستستقيم حياتهم كلها وإن فشلوا في هذه المرحلة فعلى الأرجح أنهم سيفشلون في المرحلة القادمة، وإنما نتكلم هنا بشكل عام، ولكل قاعدة شواذ. إذا وجد الشباب التوجيه والإرشاد الصحيح منذ الصغر فإنهم سينشؤون على ذلك وإن تُركوا على الأجهزة الإلكترونية دون حسيب ولا رقيب فقد ظلمهم آباؤهم؛ لأنهم أهملوهم في الصغر وإن أهملوهم في الصغر فلن يستطيعوا تقويمهم في الكبر. الشباب والأطفال خاصة هم أمانة في أعناق والديهم ويجب عليهم متابعة أمورهم بأنفسهم وألا يتركوهم للخدم للقيام بكافة شؤونهم بما في ذلك تربيتهم، فهذا يعد من عقوق الأطفال وإذا عق الوالدان أبناءهم فإنهم سيواجهون عقوق الأبناء عند كبرهم فالمسألة وفاء ودين، وكما قيل: "كما تدين تدان".

من الملاحظ في أيامنا الحالية غياب الشباب عن معظم المحافل والأمور المهمة في حياتنا كمسلمين وخاصة صلاة الجماعة في المساجد، فعدد الشباب ليس كما يجب ويكاد يكون معدوماً أحياناً لأن معظم المصلين هم من الرجال والشيوخ. إن هذا الأمر لا يبشر بخير ولا بحسن خلق لا من الشباب المتغيبين عن الجماعات ولا ممن قام بتربيتهم. ويلاحظ أيضاً أن بعض الملتزمين في صلاة الجماعة لا يتوجه أبناؤهم إلى المساجد إلا ما

ندر وهذا أيضاً يشير إلى أن هناك فجوة بين الآباء والأبناء. وهنا يتوجب على الآباء العمل لتقليص هذه الفجوة وأن يكونوا أقرب من أبنائهم وأن يحثوهم على فعل الخير ويعلموهم أن الصلاة هي من أهم أركان الإسلام وهي أساس في صلاح باقي أعمالنا.

يتوجب على الآباء ألا يتهاونوا في هذا الأمر وأن يُعَوِّدوا أطفالهم منذ الصغر على صلاة المساجد حتى يألّفوها ويستمرروا عليها في مرحلة الشباب. وإذا أهمل الآباء هذا الأمر فسينشأ جيل بعيد عن صلاة الجماعة وربما بعيد عن الصلاة ككل كما لو أنهم تربوا في بيوت غير مسلمة.

لقد تخلف كثير من الشباب عن صلاة الجماعة، وربما عن الصلاة في الجملة، وانصرفوا إلى ملذات الحياة وسهروا الليل وناموا النهار فكان نتيجة ذلك الخمول والأمراض وسوء الخلق. إن التمتع بملذات الحياة ليس بمحرم على الشباب أو غيرهم، ولكن كل شيء يجب أن نمارسه باعتدال بحيث أنه لا يؤثر على واجباتنا الأخرى خاصة واجباتنا نحو عبادة الله سبحانه وتعالى وواجباتنا نحو الآباء، والأرحام، وواجباتنا العلمية، وغيرها. ومما يتوجب علينا فعله أيضاً هو تحقيق التوازن بين كل هذه الأمور، وبها تستقيم الحياة ويمكن للشباب وغيرهم أن يحيوا حياة طيبة سعيدة في الدنيا وأن يستعدوا للسعادة الأبدية في الآخرة إن هم استقاموا على الصراط المستقيم وعملوا بما يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك والديهم ومجتمعاتهم.

هناك مشكلة كبيرة تكمن في سلوك بعض الآباء حيث إنهم يرون سوء خلق أبنائهم أو يرونهم على حالهم هذا ويسكتون عنهم وبعضهم يقول: لم أستطع فعل شيء، وهذا كله كلام لا يصح. على الآباء أن يعلموا أنهم إن لم يُقَوِّموا سلوك أبنائهم في هذه المرحلة فالمهمة ستكون أصعب عندما يكبرون. لذلك يجب على الآباء جميعا التوكل على الله أولا والدعاء للأبناء وبذل كافة الجهود الممكنة لتهديب سلوكهم قبل فوات الأوان. يجب عليهم أيضا أن يحثوهم على صلاة الجماعة وكافة الأمور التي تتعلق بحياتهم، فالشاب الذي عرف حق ربه عليه سيعرف حق والديه عليه وسيكون بارا بهم عند كبرهم فالدين والالتزام به هو رأس المال الحقيقي لأنه ينعكس على الأبناء والآباء معا. فمن حسن خلقه ودينه يكون بارا بوالديه ويراعي مصلحة وطنه ومصالح المسلمين عامة ويكون ممن يرجى خيره ويتوسم به وبأمثاله الخير.

عندما يحث الآباء أبنائهم على الصلاة والصيام وكافة أمور العبادة، فإنهم يعملون لأنفسهم كما يعملون لأبنائهم وإذا تمكنوا من دفع أبنائهم نحو الصلاح فسيقطفون ثمار ذلك في الدنيا والآخرة وسينعكس حسن أخلاق هؤلاء الشباب على أنفسهم ووالديهم. إذا صلح الشاب كان مطيعا لوالديه وعونا لهم على متطلبات الحياة وإذا لم يكن كذلك فإنه سيتسبب بتعب وهم كبير لهم وربما يكون سبب شقائهم في الدنيا والآخرة. وبناء على

هذا، يجب أن تتصدر التربية الصالحة للأبناء كافة أولويات الآباء ليكونوا ذخرا لوالديهم ومجتمعاتهم وأمتهم.

عندما يَحْسُن خلق الشباب يكونون مستعدين للقيادة ويتصدرون كافة الأنشطة المهمة في الحياة بما في ذلك الأنشطة العلمية والتربوية حيث يزخر تاريخنا بإنجازات الشباب العظيمة وبطولات منقطعة النظير من شباب لم يتجاوز عمرهم العشرين عاما. ومن الأمثلة على ذلك، أسامة بن زيد، رضي الله عنه، الذي قاد الجيش بعمر لم يتجاوز 20 عاما حين أمَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجيش وحقق نجاحاً عظيماً على حدود الدولة الإسلامية الناشئة، وكذلك محمد بن القاسم الذي لم يتجاوز 17 عاما وقد أمَّره الحجاج بن يوسف الثقفي على جيش عظيم فتح بلاداً واسعة، وهي ما تسمى ببلاد السند.

إن الشباب، إذا ما أعدوا إعداداً جيداً، فإنهم سيلعبون دوراً مهماً في الحياة من كافة النواحي بما في ذلك القيادة والعلمية والعملية. ما يحتاجه الشباب فقط هو الإعداد الصحيح وأن تهيأ لهم البيئة المناسبة لتساعدتهم على بلوغ الأهداف السامية. وإن كان شباب الأُمس قادرين على القيادة، فشباب اليوم يمكن لهم أن يقتدوا بهم وأن ينجزوا الإنجازات العظيمة إذا ما تم تدريبهم بشكل حسن وتربوا على محاسن الأخلاق وأعطيت لهم الفرص التي يستحقونها.

الفصل السادس

حسن الخلق وتحديات الحياة المعاصرة

لا شك أن حسن الخلق أمر مطلوب على مر الزمان، ولكن التحديات التي تواجه الإنسان تختلف من عصر إلى آخر. في عصرنا هذا الذي يتسم بالسرعة، غالبا ما يكون الناس في عجلة من أمرهم لأن أغلب المهام التي ينجزونها يكون قد تم تحديد وقت مسبق لإنجازها إضافة إلى كثرة وتشابك المهام فيسبق الإنسان الزمن لينتهي من الأمور المطلوبة في الوقت المحدد. كل هذه الأمور والضغوط التي يواجهها الناس في العمل وفي الشارع أثناء قيادة سياراتهم والانتظار أثناء إنجاز المعاملات، التي لا تكاد تنتهي، تؤثر سلبا على تفكير الإنسان وتعامله مع الآخرين وبالتالي ربما تؤثر على سلوكه وأخلاقه. لهذا فالإنسان المعاصر محاصر بالالتزامات وأثقلت كاهله الواجبات الكثيرة وسببت له الضغوط النفسية ولم يعد لدى الكثير من الناس الصبر الكافي للتعامل مع كافة المهام بالشكل المطلوب.

لهذه الأسباب، ينبغي للإنسان المعاصر أولا أن يدرك متطلبات بيئة عمله ويستوعبها وكذلك المتطلبات الاجتماعية ومن ثم يعمل على التوفيق بينها وأن يؤقلم نفسه وفقا لهذه الظروف وعلى رأسها التحلي بالصبر والاستفادة من تقنيات العصر الحديث بالشكل الصحيح. مع زيادة المهام وتعقيداتها، فإن الإنسان المعاصر يمتلك إمكانيات هائلة تساعد على الإنجاز وهي لم تكن متوفرة مع من كان قبلنا؛ لذلك إذا كان لدينا مشكلة فإننا نملك الحل لها أو جزءا من الحل على أقل تقدير وما يحتاجه الإنسان

في الماضي يحتاجه الإنسان المعاصر اليوم وخاصة حسن الخلق ومتطلباته من الصبر والعزم وحب إتقان العمل.

من الأمور الحياتية المعاصرة التي نختبرها بشكل يومي هي قيادة السيارات وما نشاهده أحيانا من سوء خلق وعدم احترام للطريق ولحقوق الآخرين بشكل يرفع ضغط الدم وربما السكر بين مستخدمي الطريق. خلال قيادتنا، نلاحظ أحيانا تصرفات غير مسؤولة وغير لائقة قد تصل إلى حد الشتم والمضايقات بين مستخدمي الطريق وربما تؤدي إلى الحوادث المرورية، علما بأنه غالبا ما تحدث هذه الأمور لأسباب تافهة أو استعجال مصطنع، أي أن بعض الناس اعتادوا على العجلة حتى إن لم يكن هناك شيء ضروري ينتظرهم، فهم دائما متوترون ويقودون سياراتهم بسرعة جنونية قد تتسبب بإزهاق أرواح بريئة.

لقد حصلت الكثير من الحوادث وتوفي فيها أشخاص ملتزمون بالقوانين المرورية، بل وكانوا يقودون سياراتهم بكل احترام ملتزمين بحدود السرعة وكافة القوانين ومن ثم يأتي شخص مستهتر فيتسبب بحادث لنفسه ولهم ويكون سببا في موتهم. نحن على يقين بأن الفاعل سيكون نادما أشد الندم على ذلك، ولكن ما نفع الندم بعد أن ارتكب جريمة قتل وقتل بريئا لا ذنب له سوى أنه ضحية لاستهتار بعض المستهترين. الشاهد أن كل هذه التصرفات تنبئ عن سوء خلق ولا تتوافق وسجية حسن الخلق التي دعا إليها الإسلام.

علاوة على ذلك، القيادة السريعة وإزعاج الآخرين لن يجعلك تصل إلى وجهتك فوراً، بل ولن يكون الفارق كبيراً ولن يتجاوز سوى دقائق قليلة بين القائد المستهتر ومن يقود سيارته وفق القوانين والإرشادات وغالبا ما تصاحب الثاني السلامة وربما واجه الأول عواقب وخيمة كالحوادث المرورية والتي يمكن أن يسببها لنفسه ولغيره، فمن حسنت أخلاقه لا يقبل بهذه التصرفات لأنه يحترم الآخرين ويحترم حقوقهم.

إن هذه التصرفات غير المسؤولة تنم عن سوء خلق وقلة احترام للنفس والآخرين لأن من لا يحترم الآخرين لا أحد يحترمه. هذه أيضا تصرفات لا تليق بمسلم وكلما يحتاجه المستهترون هو حسن الخلق والتعود على الصبر حتى يحافظوا على أرواحهم وأرواح من يستخدم الطريق. لو فكر المستهترون بالعواقب الوخيمة التي قد تحدث نتيجة تصرفاتهم الطائشة لما أقدموا على مثل هذه الأفعال، ولكن بعضهم لا يتعظ حتى يقع في المحذور! وهناك كثير من المستهترين تابوا عن أفعالهم الطائشة هذه، ولكن بعدما ارتكبوا حوادث مرورية قتل فيها أبرياء. هنا يحتاج كل مستهتر للتفكير حول هذا الأمر ويسأل نفسه عما إذا كان سيستمر في طيشه ورعونته أم يتوب قبل أن يتورط بحدث يندم عليه! هل الأفضل بالنسبة لهم أن يتوبوا الآن أم بعدما يقع المحذور؟ إذا فكروا بشكل إيجابي فسيعلمون أنه يجب عليهم أن يقلعوا عن هذه التصرفات قبل أن يضعوا أنفسهم بهذا الموقف العصيب.

أما في بيئة العمل، ففي أيامنا هذه يواجه الناس ضغوطا متزايدة نتيجة طول ساعات العمل التي تمتد إلى ثمان ساعات يوميا في معظم القطاعات إضافة إلى الحياة الرتيبة والروتينية والمتطلبات المنزلية والعائلية. كل هذه الأمور تجعل الإنسان عرضة للتوتر والقلق التي قد تقوده إلى أقوال أو أفعال غير محمودة. وهنا أيضا تكمن رباطة الجأش وقوة العزيمة والإرادة على مواجهة المصاعب والشدائد والثبات على المبادئ الطيبة الأصيلة التي جبل عليها المسلم.

هذه المواقف تبين معادن الأفراد إن كانوا سيصبرون حتى يجاوزوا ما هم فيه أم يستسلموا للغضب والتوتر ويفسدوا أخلاقهم بسيء القول والفعل. ولما كان حسن الخلق يحتاج إلى المكابدة والمتابعة أجزل الله سبحانه وتعالى العطاء لمن حسنت أخلاقهم وجعل لهم أعالي الجنان، فهذه المكافأة الربانية تستحق منا التدبر والتأمل حتى نظفر بها وهي خير ما يعيننا على الصبر والتغافل عما يزعجنا أو ننزعج منه.

ومن الأمور التي قد تشعر الإنسان بالتوتر في حياتنا المعاصرة الزحمة المرورية والزحمة في الأسواق. إن الانتظار أمر غير مستحب عند كثير من الناس ويود الإنسان ألا يمر بموقف كهذا، ولكن حسن الخلق يظهر هنا من خلال مواصلة المعاملة الطيبة. ونخص بالذكر هنا المراجعين ومن ثم الموظفين الذين يتحملون العبء الأكبر من الضغط والتوتر بسبب متطلبات العمل وطلبات وأسئلة المراجعين التي لا تكاد تنتهي. ونعلم أنه

ليس من السهل معاملة كافة الناس بلطف تحت ضغط العمل، ولكن علينا أن نسدد ونقارب ونبذل جهدنا لإرضاء ربنا أولاً ومن ثم نبذل ما بوسعنا لإتمام العمل على أكمل وجه ممكن وهذا سيجعلنا نشعر بالراحة وطيب خاطر.

إن الصبر على هذه الأمور ليس بالأمر اليسير، ولكن الإنسان يستطيع أن يؤقلم نفسه وفق الظروف المحيطة به والاعتياد عليها تدريجياً. أما بالنسبة للمراجعين، فقد يشعروهم الانتظار لإتمام المعاملات بالقلق والتوتر، ولكنهم يمكنهم استبدال هذه الأجواء بأجواء إيجابية وملء وقت فراغهم ببعض الأمور المفيدة مثل الأذكار أو قراءة أشياء نافعة أو سماع شيء مفيد أو مساعدة الآخرين إذا وجد من يحتاج المساعدة، وخاصة إذا كانت فترة الانتظار طويلة نسبياً. وبهذه الأعمال الإيجابية يملؤون الفراغ الذي يسعى الشيطان دائماً إلى ملئه بطريقته الخاصة من خلال تقويض صبر الإنسان وحثه على مخالفة القوانين مثل من يسعى لأخذ دور غيره وإنهاء المعاملة قبل الوقت المحدد لها. هنا يتوجب على المراجعين مراعاة واحترام بعضهم لأن أي واحد منهم قد يكون لديه التزامات أخرى مهمة بعد هذه المعاملة، فلا يصح لمراجع أن يأخذ مكان غيره عبر الطرق الملتوية، ومنها الوساطة.

أما بالنسبة لمن يضيق صدره من هذه الأمور، فعليه أن يعلم بأنه إذا عزم الإنسان فإنه يستطيع أن يوطن حياته وتصرفاته وفقاً لما يحب الله سبحانه ويرضى، ولكن هذا

الأمر يحتاج إلى المجاهدة فإن أردت أن تفعل شيئاً لا بد من التدريب والصبر والثبات للدوام عليه كأن تتخذ قراراً مثلاً أن تؤدي بعض الأذكار اليومية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن تقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير" مائة مرة في اليوم¹. بداية سيشعر من يفعل ذلك بصعوبة الأمر في الأيام الأولى فيوم يذكرها ويوم ينساها، ولكن مع مرور الأيام سيعتاد عليها وسيذكرها وستنخفض نسبة النسيان تدريجياً وستنتهي تماماً عندما يعتاد عليها جيداً. ومع مرور الأيام، سيحس بسهولة وخفتها على اللسان، بل إن نسيها في بداية اليوم سيشعر أن هناك مهمة فاتته أو لا زالت تنتظره ولم ينجزها بعد حتى يتذكرها ويفعلها كما كان يفعل في الأيام السابقة.

مثال آخر على ذلك وهو صلاة الفجر لشخص اعتاد أداءها بعد طلوع الشمس خاصة في وقتنا الحاضر حيث إن معظم الناس يتكاسلون عنها ولا يحضرون الجماعة. إن قرر أحد هؤلاء الأشخاص تغيير عاداته وأداء صلاة الفجر في المسجد، فإنها في بادئ الأمر ستكون عليه ثقيلة فيوم يستيقظ ويوم تفوته، ولكن إذا أصر على الالتزام بها وعقد النية الصادقة لذلك فإنه يعتاد عليها، بل وسيشعر بالراحة والطمأنينة في أدائها، وسيصبح ممن لا يود أن يفارق الجماعة وقد يتأسف كثيراً لأي يوم تفوته سواء بسبب نوم أو مرض أو

¹ هذا الحديث رواه الشيخان، ومما جاء في فضله: (كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحا عنه مائة سيئة، وكان في حرز من الشيطان في يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل عمل أكثر من عمله).

سفر. ومع مرور الأيام، ستنقلب إلى متعة بعد أن كانت شاقة عليه في البداية وإذا فاتته يقضي يومه وفي خاطره يتردد أمر وهو أنه نسي فعل أحد الأشياء المهمة في حياته في ذلك اليوم.

هكذا هي الأمور والمهام دائماً تكون صعبة في البداية وعندما يبدأ الإنسان بالعمل عليها يبدأ بالشعور بسهولةتها تدريجياً لذلك هناك خيط رفيع جداً ما بين الفشل والنجاح وهذا الخيط هو الصبر والمثابرة. ففي بداية المهمة خاصة إذا كانت مهمة جديدة لا بد من مواجهة بعض العقبات ومن ذلك نقص المعلومات أو عدم المرونة أو عدم الممارسة المسبقة التي تجعلنا معتادين على إنجاز مثل هذه المهام، فإن تحلينا بالصبر والعزيمة وحب الإنجاز فإننا سننهي المهمة بنجاح وإن كنا مترددين أو لم نتحل بالثقة بالنفس والمرونة الكافية فلن ننجح في تلك المهمة.

في الواقع، الإنسان بشكل عام والمسلم بشكل خاص يجب أن يتمتع بالمرونة الكافية، وكل إنسان يمتلك هذه المرونة، ولكن ما يهمنا هو كيف نسخرها لصالحنا، خاصة في عصرنا الحالي لكثرة الالتزامات والمهام وكذلك كثرة الوسائل التي نستخدمها لإنجاز هذه المهام. قبل كل شيء، لا بد من الثقة بالنفس فإنها العامل الأول الذي يرسم الطريق أمامنا بالنجاح أو بالفشل. فإن تحلينا بالثقة بالنفس وتمتعنا بالعزم والإصرار والمثابرة فلا شيء

يقف في وجه الإنسان، بل ويستطيع أن يكيف نفسه، إذا تحلى بهذه الأمور، وفق الظروف المحيطة به.

ويجب أن يدرك الشخص قبل الشروع بالمهمة إذا ما كان جاداً أم لا، فإن كان جاداً فإنه على الأرجح سينجح في مهمته أو فيما أسند إليه، وإذا كان متردداً أو اتبع التسوية في إنجاز المهام فإن الفشل بانتظاره وسيكون حليفه في هذه المهمة والمهام الأخرى. عندما يطمح الشخص إلى غاية معينة فينبغي له أن يفكر فقط في كيفية بلوغها وألا يفكر بما سيواجهه في طريقه من مشاكل وعوائق، كما قال أبو القاسم الشابي¹:

إِذَا مَا طَمَحْتُ إِلَى غَايَةٍ رَكِبْتُ الْمُمَى وَنَسِيتُ الْحَدْرَ
وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وَعُورَ الشَّعَابِ وَلَا كُبَّةَ اللَّهَبِ الْمُسْتَعْرِ
وَمَنْ يَتَهَيَّبُ صُغُودَ الْجِبَالِ يَعِشُ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحَفَرِ
فَعَجَّتْ بِقَلْبِي دِمَاءُ الشَّبَابِ وَضَجَّتْ بِصَدْرِي رِيَاخُ أُخْرَ

بناء على ذلك، نحن قادرون على الإنجاز وقادرون على إتمام المهام المختلفة إذا رغبتنا حقاً في إتمامها بنجاح. هذا يعني أننا نحتاج فقط إلى الرغبة الصادقة في الإنجاز والإصرار على المتابعة لتخطي العقبات التي تواجهنا، فإن أعددتنا العدة وأخذنا بالأسباب، فسنحصل على المطلوب وعلى ما نصبوا إليه، وإن لم نفعل فإنه سيكون من الصعب

¹ ديوان أبي القاسم الشابي.

علينا بلوغ الهدف وربما توقفنا مع أول عقبة تعترض طريقنا. فإذا نويت على أمر فعليك
بعلو الهمة وفكر فقط في إتمام المهمة وتحقيق المطلوب ولا تفكر بالجهود التي تحتاج
إلى بذلها، بل فكر بلذة الفوز بعد النجاح.

الفصل السابع

العلم وحسن الخلق

العلم يهذب النفوس عموماً ويجعل الإنسان أكثر حكمة وتواضعاً وكلما ازداد علم الإنسان وتعمق في العلوم بشكل عام والعلوم الشرعية بشكل خاص تزداد معرفته بقدرة الله جل وعلا وحكمته من الخلق وتزداد خشيته وعبادته لله جل وعلا. وإن كان هذا العالم من المؤمنين فإنه سيدرك أكثر من غيره حق الله جل وعلا على العباد في عبادته على الوجه الأكمل والأحسن، كما يعلم أكثر من باقي الناس القدرة اللامتناهية لله سبحانه وتعالى في تسيير أمور الخلق وحكمته البالغة في شؤون المخلوقين. وقد أكد القرآن الكريم على تمييز العلماء من ناحية خشية الله سبحانه، وإذا ما كانوا أشد الناس خشية فإنهم أيضاً يكونون أكمل الناس عبادة. قال الله جل وعلا: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)¹. وليست عبادة العالم كالجاهل؛ لأن عبادة العالم غالباً ما تكون أكثر إخلاصاً نتيجة العلم الذي حباه الله تعالى إياه، فيعبد الله على علم ويقين ولا يساور نفسه أدنى شك بخالقه ورازقه ومدبر أمره، سبحانه.

هناك أمور عديدة تؤكد ارتباط العلم بحسن الخلق ومنها الدراسة الجامعية. من الملاحظ أن الطلاب متى ما التحقوا بالدراسة الجامعية تبدأ أخلاقهم بالتحسن وكذلك معاملتهم للآخرين والاحترام المتبادل لدرجة أن هذا الأمر يظهر مفعوله أحياناً كالسحر، إذ ينقلب سلوك وتصرفات بعض الطلاب رأساً على عقب بعد الالتحاق بإحدى الجامعات

¹ سورة فاطر: (28).

مباشرة. منذ الأيام الأولى في الجامعة، يبدأ الطالب يشعر بأنه طالب علم جامعي ولا تليق به التصرفات التي كان يمارسها في الثانوية والأيام التي سبقت الجامعة، فيبدأ بالعمل على تهذيب أخلاقه وسلوكه ليتوافق مع المرحلة الجديدة من حياته.

مما يساعد الطلاب الجامعيين على حسن الخلق البيئة الجامعية ذاتها إذ تتسم هذه البيئة بالاحترام المتبادل بين الطلاب والمحاضرين وبين الطلاب أنفسهم. وعندما نتكلم عن الطلاب فإننا نتكلم بشكل عام والكل يعلم أن لكل قاعدة شواذ ومن هنا فإننا لا نقصد أن كل طالب جامعي يتحلى بحسن الخلق، ولكننا نتكلم على العموم أي أن أغلب الطلاب الجامعيين هم على هذه الشاكلة، ولا بد من وجود الاستثناءات وبعض الحالات الشاذة وهذا يوجد في كل شيء ليس فقط الدراسة الجامعية وبيئتها الإيجابية التي غالباً ما تتسم بحسن السلوك والاحترام وتختلف تماماً عن المراحل الدراسية التي سبقتها. للبيئة الجامعية تأثير إيجابي ملحوظ على سلوك الطلاب وتساهم كثيراً في صقل أخلاقهم ومساعدتهم على تهذيبها والتعامل مع مختلف الأمور بشكل أكثر تأدباً واحتراماً.

العلم غالباً ما يكون مصحوباً بحسن الخلق فإن لم يردع الإنسان خلقه الحسن عن كل ما هو قبيح فإن العالم أو صاحب العلم يستحي أن تصدر منه أقوالاً أو أفعالاً لا تليق بمقامه وشهادته أو علمه. وهكذا يشكل العلم حاجزاً بين المرء وبين التصرفات والأقوال

غير اللاتقة ويحذر من أن يصدر عنه أي كلام أو فعل يؤثر على سمعته وشخصيته ومكانته الاجتماعية، لذلك يكون للعلم تأثيرا مباشرا أو غير مباشر.

التأثير المباشر هو أن يساهم العلم في صقل أخلاق صاحبه ويجعله يتصرف بحكمة واحترام لأنه اعتاد على ذلك وليس استحياءً من أن يقال: عالم ويتكلم بكلام لا يليق. وأما التأثير غير المباشر وهو حسن الخلق المصطنع، أي عندما يحذر العالم من أن تصدر منه أقوال أو أفعال لا تليق به فقط حتى لا يقال عنه قال: كذا وكذا، وهذا نوع من الرياء، ولكنه ساهم في كبت تصرفات وكلمات غير لائقة من شخص معين وهو من حسن الخلق. وقد أسلفنا في هذا الكتاب أن سجية حسن الخلق قد يتمتع بها أي شخص ولا يشترط أن يكون متدينا أو شديد الالتزام بالتعاليم الدينية وقد يكون حسن الخلق مكتسبا أو حتى مصطنعا أحيانا. وكل هذه الأصناف مفيدة لأنها تهذب أخلاق الإنسان وتحثه على مراعاة الآخرين واحترامهم.

ولا يتوقف ذلك عند العلم الشرعي فقط، بل العلوم كلها وأهل العلم هم أخرى الناس بحسن الخلق وأجدرهم بأن يكونوا الأكمل إيمانا والعلماء ورثة الأنبياء لأن الله سبحانه تعالى أكرمهم بما يستدلون عليه من خلقه، وهم أكثر الناس تصديقا لأن لديهم من العلم ما يكفي لإزالة كل ما يقع موقع الشك في نفوس الآخرين.

من هذه الناحية، يمكن لنا أن نتأمل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن موسى عندما سأل الله جل وعلا عن أدنى أهل الجنة منزلة، ففي نص الحديث: (سأل موسى ربه فقال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ فيقالُ له: ادخلِ الجنةَ، فيقولُ: أيُّ ربِّ كيفَ وقد نزلَ الناسُ منازلَهُم وأخذوا أقدانَهُم؟ فيقالُ له: أتَرْضَى أنْ يكونَ لَكَ مثلُ ملكٍ مِلكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا؟ فيقولُ: رضيتُ ربِّ، فيقولُ: لَكَ ومثلهُ ومثلهُ ومثلهُ، فقال في الخامسة: رضيتُ ربِّ، فيقولُ هذا لَكَ وعشرةُ أمثالهِ وَلَكَ ما اشتَهتْ نَفْسُكَ وَلَدَّتْ عَيْنُكَ. فيقولُ رضيتُ ربِّ! قال: ربِّ فأعلاهم منزلةً، قال أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها فلم تَرَ عينٌ، ولم تسمعُ أُذُنٌ، ولم يخطُرُ على قلبٍ بشرٍ)¹.

لو تأملنا في هذا الحديث الشريف وفق التطورات العلمية الحديثة فإننا سنرى أموراً عجيبةً، لأن ظاهر الحديث يتطلب مساحات شاسعة لا يكاد يتخيلها العقل عندما نفكر بأدنى أهل الجنة منزلة وحيث أن منزلته تعدل ملك عشرة ملوك من ملوك الدنيا. السؤال كيف ستكون منزلة أوسطهم وأعلاهم وكم عدد الكواكب أو كم مساحة الكوكب الذي سيغطي هذه المساحات اللامتناهية؟ وكم من الخلق سيدخلون الجنة؟ عند التفكير في هذا الأمر يخيل للمرء أن هذا يفوق قدرتنا العقلية حتى لتخيله، ولكن واجبنا كمسلمين

¹ رواه مسلم.

الإيمان بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كنا غير قادرين على استيعاب أو تخيل الأمر.

في وقتنا الحاضر وبعد التطورات العلمية العظيمة وما نشاهده في الفضاء وما نشاهده عند الصعود في الطائرة والصور التي تُبثُّ عبر الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية وغيرها، تجعلنا متيقنين أن هذا الأمر هين جداً، بل هو في منتهى السهولة بالمقارنة مع قدرة الله تعالى العظيمة لأننا نعلم يقيناً أننا نعيش على الأرض التي لا تساوي شيئاً بالنسبة لمساحة الكون وأن الأرض لا تشكل إلا قطرة من بحر عظيم تمده من بعده بحورٍ أخرى. عندما ندرك هذا نستشعر عظم خلق الله وندرك يقيناً أن الله على كل شيء قدير وأن ما ورد في الحديث سهل المنال وسهل التحقيق وهو أهون على الله سبحانه مما نتخيل وذلك لما نراه أمام أعيننا من معجزات إلهية.

نحن نعلم أن مجرتنا، مجرة درب التبانة، التي تحتوي على مليارات الكواكب لا تساوي إلا نقطة صغيرة في رحاب واسع مقارنة بما تم اكتشافه من الكون، علماً بأنه ووفق الاكتشافات العلمية الأخيرة فإن مجرتنا تحتوي على عدد هائل من الكواكب والنجوم يقدر عددها من 100 إلى 400 مليار. إضافة إلى ذلك ووفق المصادر العلمية، فإن هناك من 100 إلى 200 مليار مجرة في الكون الذي نعيش في جزء لا يكاد يذكر منه وهو في منتهى

الصغر بالمقارنة مع الكون الفسيح، فتبارك الله أحسن الخالقين، وسبحانه وتقدس
أسماءه وقدرته.

الشاهد من هذا أنه عندما نعلم عِظَم خلق الله جل وعلا ونراه بأعيننا من خلال
الصور والتلسكوبات الحديثة نكون عندها على يقين بأن الله جل وعلا قدير على كل شيء
وأنه مهما بلغنا من العلم لا يمكن لنا تَخِيل قدرته لما نراه من معجزات مبهرة أمام أعيننا
ولم يكن لمن قبلنا سبيل إليها. وَعِظْمُ الخلق يدل على عِظْمُ الخالق ويؤكد أن هذا الخلق
العظيم لا بد له من خالق عظيم لخلقه وتسيير أموره. وقد ساهمت هذه الاكتشافات
العلمية في توسيع معارفنا وإدراكنا وعلمنا بِعِظْمِ خلق الله سبحانه وتعالى، والعلم دائما
ينعكس إيجابا على مختلف جوانب حياتنا ويجعلنا أكثر تواضعاً وأحسن أخلاقا.

عندما نتفكر بالمساحات الشاسعة التي تفصل كل كوكب عن كوكب وكل مجرة
عن مجرة وهي تقاس بملايين السنين الضوئية لا يسعنا إلا أن نقف مبهورين من عظم هذا
الخلق. وهذا الخلق الذي نتحدث عنه ما هو إلا جزء يسير جدا من كون وفضاء أعظم
وأوسع يدل دلالة قاطعة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن قدرته جل وعلا لا
متناهية وأنها لا يمكن وصفها أو تخيلها مهما شططنا في تفكيرنا وخيالنا لأن هذا أكبر من
استيعابنا العقلي وأن عقولنا مهما بلغت من العلم هي أضعف من إدراك عظمة الله
سبحانه وتعالى، وهذا مصداق حديثه صلى الله عليه وسلم (أعددتُ لعبادي

الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر¹. من خلال الاكتشافات العلمية أدركنا جزءاً يسيراً من عظمة خلق الله، سبحانه وتعالى، ولكن يستحيل علينا أن نحيط إلا بقدر قليل من قدرته الحقيقية وعلمه لأنه كلما اكتشفنا أكثر نكتشف أن وراء هذا الاكتشاف أشياء أكبر وأعظم. وهذا يؤكد لنا أنه حتى قلوبنا وعقولنا لو حاولت أن تتصور الأمور بأعظم طريقة ممكنة لم تدرك شيئاً من عظمة خلق الله، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الفرق بيننا وبين من سبقنا من المسلمين أننا نرى آيات الله سبحانه وتعالى بشكل أوضح عبر الاكتشافات العلمية، فحق علينا الاعتراف بقدره الله سبحانه وتعالى والعمل على عبادته على الوجه الأكمل. أما من سبقنا، فالمؤمن يؤمن بما أنزله الله جل وعلا وبما سنه نبينا صلى الله عليه وسلم ولا يشك بذلك أبداً، بينما ضعيف الإيمان إذا قرأ هذا الحديث أو سمع به في الماضي ربما يساوره بعض الشك وربما يعمل الشيطان على تشكيكه بهذا الأمر، ومداخل الشيطان كثيرة جداً. ربما يبدأ الشيطان بحث ضعيف الإيمان على التساؤل حول واقعية هذا الأمر وهل يعقل أن أدنى منزلة هي بتلك القدر؟ وهل هذا الأمر ممكن الحدوث؟ وإن كان ممكناً أين تلك المساحات؟ ثم يحثه على المضي قدماً نحو

¹ رواه البخاري.

التساؤل عن أمور أخرى حتى يشككه بخالقه وهذا هو هدف الشيطان إذا أنه ينتقل
ويصعد من مرحلة إلى أخرى، وإن استطاع لن يتوقف إلا بكفر الإنسان.

أما نحن الآن، فنعلم ونرى عظم خلق الله سبحانه وتعالى الذي لا يجاريه خلق
وحق له سبحانه التفرد بالألوهية والربوبية وحق له أن يعبد وحده لا شريك له، سبحانه
وتعالى عن الند والشريك، وخاب وخسر كل من جعل له شريكاً أو ندّاً لأن هؤلاء الشركاء ما
هم إلا عجزة لا يستطيعون فعل شيء، كما قال سبحانه وتعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي
مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)¹.

بناء على ما تقدم، فإن من يعلم ليس كمن لا يعلم والعالم حري به حسن الخلق
وكذلك العبادة لما لديه من العلم واليقين بأن الله سبحانه وتعالى هو مبدع هذا الكون
العظيم وهو خالقتنا وهو وحده الذي يستحق العبادة. ومن يعبد الله على علم يختلف
ممن يعبد الله دون علم لأن العلم يقطع الشك ويقطع الطريق أمام وساوس الشيطان.
العلم أيضا يوصل صاحبه إلى مرحلة الإحسان واليقين في العبادة وقد ذكر ذلك في القرآن
الكريم في قصة نبي الله إبراهيم وعزير في سورة البقرة وقد وردت هاتين القصتين إحداهما
تلو الأخرى.

¹ سورة لقمان: (11).

في القصة الأولى قال الله جل وعلا على لسان إبراهيم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)¹. إبراهيم عليه السلام مؤمن وهو نبي وهو يعلم أن الله على كل شيء قدير، ولكنه أراد المزيد من العلم واليقين وأراد اطمئنان القلب عندما يرى إحياء الموتى أمام عينيه.

أما القصة الثانية التي وردت قبل قصة إبراهيم عليه السلام مباشرة، فهي قصة عزيز الذي قال الله جل وعلا فيه: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)². في هذه الآية تساءل عزيز عن قدرة الله على إحياء الموتى عندما مر بجانب مقبرة وهو أيضا يعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على هذا الأمر وعلى كل شيء. عندما تساءل عن هذا الأمر أماته الله مائة عام ثم أحياه، وبعد أن أحياه الله جل وعلا علم يقينا بذلك، بل وبالتجربة إذ كان هو ميت وأحياه الله سبحانه

¹ سورة البقرة: (260).

² سورة البقرة: (259).

وتعالى، وكذلك أمات وأحيا حماره معه ورأى كيف يقوم حماره من الموت ويعود صحيحا. القصتان تعطيان درساً في علم اليقين الذي لا شك فيه ومن هنا يتميز العالم عن غير العالم.

أما نحن الآن فنرى من الآيات والمعجزات ما يجعلنا نعلم يقينا بأن الله على كل شيء قدير وذلك من خلال ما نرى في السماوات والأرض التي هي أعظم بكثير من خلق الناس، كما قال الله جل وعلا: (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)¹. من أدرك عظم خلق الكون أدرك أن خلق الإنسان لا يعتبر شيئاً مقابله وأن الله الذي خلق الكون قادر على أن يخلق مثله وأحسن وقادر على خلق الناس ومثلهم وأحسن. الآية تشير بوضوح إلى هذا الأمر وأوضح أن أكثر الناس لا يتسمون بسمة العلم أيضاً.

كل هذه القصص والتفكر في الآيات تعزز العلم وتجعل من الإنسان أحسن خلقاً وأكثر حكمة. والعلم يساعد الإنسان على بلوغ الكمال والإحسان في عبادته وأخلاقه ولذلك العلماء هم صفوة كل أمة وبهم تنهض الأمم وبزوالهم تزول، وكلما زاد العلم في الإنسان زاد الإنسان خلقاً وخشيتة وإيماناً. لذلك حض الإسلام على العلم ومتابعة العلوم المختلفة

¹ سورة غافر: (57).

ومجالسة العلماء والصالحين لأن جليسهم سينهل من علمهم ويتأثر بحسن خلقهم وسلوكهم.

الفصل الثامن

حسن الخلق وركوب المعاصي

بما أن حسن الخلق يُبَيَّن على عدد من الخصال المختلفة فلا يشترط بمن حسن خلقه أن يكون من دين معين أو ملة معينة، فأى إنسان قد يتمتع ببعض هذه الخصال التي تجعله ممن حسن خلقه. ولا يعني أن من حسنت أخلاقه هو من الهداة المهتدين لأن بعضاً ممن حسنت أخلاقهم قد يرتكبون بعض المعاصي، ولكن المسلم يبلغ درجة الكمال بالعلم والعمل والخلق الحسن والالتزام بما شرعه الله سبحانه وتعالى وبما سنه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. لذلك فحسن الخلق سجية جميلة يمكن لأي إنسان أن يتحلى بها إن أراد ذلك ولا مانع حقيقي أمامه إن هو عزم على الارتقاء بخلقه وأحب أن يعامل الناس بطريقة حسنة وأحب أن يعامله الناس بالمثل.

من المسلمين من يتمتع ببعض هذه السجايا الحميدة، ولكنه أُبتلي بمعاص معينة مثل بعض النساء اللواتي ابتلين بنزع الحجاب. فمن بين نساء المسلمين ممن يتمتعن بأخلاق حميدة وصدق في المعاملة وإحسان في العمل وصلاة وصيام، ولكن ابتلين بنزع الحجاب أو غيره من المعاصي الأخرى. فما ضرهن لو ارتدين الحجاب والتزمن بما فرضه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وتغلبن على وساوس الشيطان ومغريات الحياة. فحري بالنساء المسلمات ألا يهدمن وينقضن ما بنين من خير في أمور يمكن تجنبها بسهولة، وعليهن التفكير ملياً في هذا الأمر وعليهن بتقوى الله جل وعلا قبل فوات الأوان. وإذا فعلن ذلك فالأفضل لهن أن يعلنن نية هذا العمل خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى

حتى يفزن في الدنيا والآخرة وأن يبذلن الجهود للتغلب على نزغ الشيطان وألا يسمعن كلام
المُخذّلين فعليهن بأنفسهن أولاً للنجاة من عذاب الآخرة.

بعض الناس يتساءل عن الفائدة التي يحصلن عليها النساء اللواتي هجرن الحجاب
خاصة المتزوجات منهن وما يستفدن من هذا السلوك! هل هن فعلمن ذلك حتى يقال:
فلانة جميلة أو متحررة؟ إن كان كذلك، فما الفائدة من هذا القول؟ عند التفكير في هذا
الأمر يجب أن نتذكر الإثم العظيم التي تجره علينا مثل هذه الأفعال! وهل هناك فائدة؟
حقيقة، ليس هناك أي فائدة، لأن الإنسان اللبيب والواثق من نفسه لا يهتم ما يقوله
الناس عندما يتصرف بالشكل الصحيح وعندما يتصرف بالطريقة التي ترضي ربه جل وعلا
عنه.

وهناك تساؤل آخر من أناس آخرين حيث يقولون إن تلك النسوة خلعن الحجاب
حتى يظهرن بصورة أجمل؟ إن صح هذا، فلماذا يبدين جمالهن لمن لا يهتمه الأمر
وأزواجهن أحق وأولى بذلك من عامة الناس! وبالطبع، هذا الأمر لا يحل لا للمتزوجات
ولا لغير المتزوجات وهجر الحجاب أيضا لا يزيدهن جمالا ولن يغير من القدر شيئا فمن
كُتِبَ الله لها أن تتزوج ملكا فستتزوجه إن كانت سافرة أو متحجبة ومن كُتِبَ لها أن تتزوج
راعيا ستتزوجه! وما يتوجب فعله هنا هو التوكل على الله سبحانه وتعالى والعمل على

طاعته وتجنب معصيته لأنه في النهاية لا أحد ينجي أحدا إن كُتِبَ عليه الشقاء كما قال سبحانه وتعالى: (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)¹.

ربما تقول: بعض النساء اللواتي نزعن الحجاب أنهن اعتدن على ذلك ولا يستطعن التغيير وربما نسمع أعذاراً أخرى! على أية حال، كل هذه الأعذار غير مقنعة وغير منطقية، فإن كانت الحجة تتعلق بمظهر حسن فيجب عليهن ألا يبدین هذا المظهر الحسن لمن هب ودب ثم إنهن لسن في ساحة عرض أزياء وإنما في سوق أو عمل أو طريق وهذا لا يتطلب منهن فعلا كهذا. وإن قلن العادة، فهذا أيضا ليس بمقنع لأن الإنسان يستطيع أن يغير العادات التي ينوي تغييرها ومثل ذلك مثل حسن الخلق، يمكن للإنسان اكتسابه، والجميع يعلم أن هذا الأمر ممكن وميسور لأن هناك كثير من النساء غير المحجبات تحجبن والتزمن بالحجاب، وقس على ذلك ما تبقى من المعاصي.

على هؤلاء النساء التفكير جيدا حول هذه الحياة وأن يعلمن أنه لا زال لديهن فسحة في هذه الحياة الدنيا ولا زال لديهن بعض الوقت لاستدراك ما فاتهن، ولكن لا أحد سوى الله سبحانه وتعالى يعلم أن ستطول حياتهن أم تنتهي فجاءة. فالعاقل من استغل وقته وفكر مليا بمآل أمره لأن أعمارنا قد تنتهي بأية لحظة، فقد يكون تبقى لنا في هذه الدنيا بعض السنين، أو الأشهر، أو الأيام، أو الساعات؛ لذا من أوجب الواجبات على

¹ سورة الزخرف: (67).

المسلم ألا يؤجل التوبة وأن يقلع عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى حتى لا يموت وهو على تلك المعصية. إن فاجأ الموت أحداً من أصحاب تلك المعاصي ندم، ولكن لن ينفعه الندم بشيء لأنه لم يستغل الفرص التي كانت بين يديه في الحياة الدنيا.

عندما نتفكر في هذا الأمر نجد أن هذه الحياة لا تستحق أن نعصي الله سبحانه وتعالى فيها ولا تستحق كل الوقت والجهد الذي نقضيه في أمورنا لأن مآلها إلى الفناء عاجلاً أم آجلاً، وهذا لا يعني أن الإنسان لا يعمل لدنياه، ولكن يجب أن يعمل بشكل متوازن للدارين، وهذا هو النجاح الحقيقي والسعادة الحقيقية. النجاح الحقيقي هو أن تنجح في الدارين وليس في الدنيا فقط.

ربما تجد إنساناً ناجحاً في حياته الدنيا نجاحاً كبيراً، ولكنه مهملاً لأمر آخرته، فأعلم أن تفكير هذا الإنسان غير سوي وإن بلغ ما بلغ من العلم، فالعلم الذي لا ينفع صاحبه في الدارين ليس بنافع على الوجه الأكمل، أو نافع بشكل جزئي لأن الإنسان يستفيد منه فائدة كبيرة في الحياة الدنيا، ولكن إن خسر الآخرة فذلك هو الخسران، ولا شيء يعوضه عنها. خسارة الآخرة أكبر وأعظم من خسارة الدنيا لأن الدنيا فانية والآخرة باقية فلا مجال لمقارنة فانية بباقية. لذلك يجب ألا نقدم الحياة الدنيا على آخرتنا مهما كانت الأسباب والمبررات، بل على العكس تماماً إذا تعارضت مصالح الدنيا مع آخرتنا وجب علينا تقديم مصالح الآخرة لأنها هي الأصل وإليها المنتهى أما الدنيا فمصيرها الفناء وإن طالت.

قد تطول بنا الحياة الدنيا، ولكن السؤال كم سنعيش؟ هل سنخلد فيها؟ بالطبع لا! فهي إلى زوال ولو بلغ عمر أحدنا المائة. فإذا بلغ المائة، فإنه سيشعر أن كل السنين الماضية مرت عليه كحلم أو كأيام معدودة وهذا حال الدنيا، فلا يستقر على حال لها حال. دنيا كهذه، هل تستحق أن نعصي الله فيها؟ وهل تستحق من نساء المسلمين أن ينزعن حجابهن ويخالفن ما أمر به الله سبحانه وتعالى؟ من يفكر بهذا جيداً يدرك الإجابة والمهم هو ليس إدراك الإجابة وإنما هو التطبيق والتنفيذ لما يرضي الله جل وعلا. وإنما ندعو الله جل وعلا أن يعين جميع المسلمين والمسلمات على الإقلاع عن المعاصي والتزام طاعته والاستعداد لما هو آت، وأن يكون ما هو آت أفضل مما نحن فيه.

والنصيحة موصولة إلى كل من بدا عليه مظاهر التدين وهو خلاف ذلك لأنه يسيء لدينه أكثر من غيره رغم أن هذا القياس قياس خاطئ فلا يجب تقييم الشخص وفقاً لمظهره، ولكن للأسف هذا الأمر موجود في زماننا. عندما ترى شخصاً ملتجياً تتوقع منه الالتزام وحسن الخلق والأدب وإذا تلكم خلاف ذلك سقط من عينك، ولكن الخطأ عند بعض الناس ممن يبنون أحكاماً على هذه المظاهر فإذا أخطأ هذا الرجل قالوا: المتدينون يفعلون كذا وكذا، دون أن يعرفوا التزام هذا الشخص حيث إنهم بنوا حكمهم على لباسه أو لحيته! على الأشخاص الذين تبدوا عليهم علامات الالتزام الحذر وحسن الخلق

والسلوك حتى لا يبني الجهلة من الناس أحكامهم على مظاهرهم فيكونون سبباً في زيادة ضلالهم.

أحد الأخطاء التي يرتكبها بعض المسلمين ممن ركبوا المعاصي أنهم يظنون أنهم لا يستطيعون الإقلاع عنها وهذا خطأ جسيم إذ إن الإنسان يستطيع أن يروض نفسه وهو اه إذا عليت همته وأخلص النية وأصر على تحقيق مبتغاه. ومن هذه الأمثلة الإدمان على التدخين والمخدرات ولبس الفاحش من الثياب، فقد نجح كثير من الناس في التغلب على هذه الشهوة بعد أن استمروا عليها سنين؛ لأنهم عقدوا النية الصادقة وعزموا فنجحوا في تحقيق هدفهم. آخرون يقولون إنهم لا يستطيعوا ترك الدخان وإنه من الصعب عليهم الشروع بهذه الخطوة الحسنة. على أية حال، هؤلاء الأشخاص يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم يستطيعون وأنه لا شيء يمكن أن يوقف عزمهم إذا صدقوا، ولكنهم مترددون ويبحثون عن الحجج والأعذار حتى يستمروا بما هم عليه.

من الشباب من أدمن على بعض المعاصي الأخرى التي تؤثر كثيراً على خلقهم وتشوّهه مثل الكلام البذيء ومشاهدة المحظورات ومرافقة قرناء السوء والبعد عن العبادات كقلة الاهتمام بالصلاة ومتابعة أخبار الفاسدين والمفسدين من الرجال والنساء. لذلك حث الإسلام الشباب على الزواج والتحصن لأنه يعينهم على تجنب مثل هذه المعاصي خاصة إذا كان لديهم القدرة لذلك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتِطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ،
وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ)¹. وفي حال عدم الاستطاعة حث النبي صلى
الله عليه السلام الشباب على الصيام لأنه أيضا يعينهم على التغلب على هوى النفس
وعدم الانخراط بالمعاصي.

إذا ما سألنا أنفسنا عن الفائدة الحقيقية من الانخراط بالمعاصي ومشاهدة ما حرم
الله، فما هي الإجابة؟ بالطبع، ليس هناك فائدة سوى مضيعة الوقت وزيادة الإثم الذي
سيسجل على كل من اقترفه حتى يمتلئ سجله بالوزر والآثام، كما قال الله جل وعلا: (يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)².
فهذه المتعة المؤقتة ستذهب خلال دقائق، ولكن إثمها يكون قد سُجِلَ على المرء ويبقى
معه إلى يوم القيامة، فهل هذا يستحق أن نفعله؟ كل هذه الأمور تنافي حسن الخلق الذي
تربينا عليه ومن حسن خلقه فإنه يعف نفسه عن مثل هذه الأمور لأنه يستحي أن يراه
الناس على هذا الحال. وإن كنا نستحي أن يرانا الناس على هذا الحال، فالأولى بنا أن نستحي
أن يرانا الله سبحانه وتعالى ونحن على هذا.

إن حسنت أخلاق المسلم وراعى العادات والأعراف واستحي أن يراه الله جل وعلا
أو الناس على ما لا يحبون وعمل بمقتضى هذا، فإنه من الموفقين الذين يرجى لهم الفلاح

¹ رواه البخاري ومسلم.

² سورة المجادلة: (6).

في الدنيا والآخرة. وهذه الأمور كلها مطلوبة من المسلمين بكل زمان ومكان لأن الإسلام يدعو إليها وشدد على ضرورة التمسك بها لما لها من دور كبير في إنشاء أجيال ومجتمعات صالحة تسودها روح التعاون والمشاركة، بل ويعينون بعضهم بعضا على التحلي بمختلف الفضائل والسجايا الحميدة وعلى رأسها حسن الخلق.

الفصل التاسع

نواقض حسن الخلق

هناك عدد من الأمور التي تؤثر على حسن الخلق وتقوضه مثل الغضب والكذب والخيانة والكبر والكلام غير اللائق الذي انتشر مؤخراً في بعض الدول الإسلامية ومنه السب والشتيم على مواقع التواصل الاجتماعي وغير ذلك. إن بعض الناس لا يلتفتون إلى ما يقولون أو يعيرون اهتماماً لما يصدر عنهم من كلام أو كتابة رغم أن كل ذلك مسجل عليهم وهو في ميزان حسناتهم إن كان خيراً وفي ميزان سيئاتهم إن كان شراً.

رُبَّ فعل واحد أو كلمة واحدة تشوه الصورة الجميلة للإنسان وتُفَرِّقُ منه الناس وربما كانت سبباً في هلاكه كما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)¹. فإن كانت الكلمة السيئة قد تودي بصاحبها، كذلك الكلمة الطيبة قد ترفع درجة صاحبها إلى أعالي الجنان؛ لذلك حري بالمسلم أن يراقب كلامه وكذلك كتاباته على مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها؛ لأن كلماته أو كتاباته كلها مسجلة له أو عليه. وعلى المسلم أن يحذر من عاقبة ذلك، لأن الحديث نص على عظم ثواب الكلمة الطيبة، ولكن بنفس الوقت نص على عظم وزر الكلمة إن لم تكن كذلك، وصدق الشاعر إذ قال²:

¹ رواه البخاري.

² ثوبان بن إبراهيم الإخميني، وقيل: الإمام الشافعي.

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيْفَنِي وَيَبْقِي الدَّهْرَ مَا كَتَبْتَ يَدَاهُ
فَلَا تَكْتُبْ بِيَدِكَ غَيْرَ شَيْءٍ يَسْرُكُ فِي الْقِيَامَةِ إِنْ تَرَاهُ

أما فيما يتعلق بالغضب، فلا بد من توضيح نقطة مهمة وهي أن ليس كل الغضب مذموم وأن الغضب خصلة من خصال الإنسان التي لا بد أن يمر بها، بل هناك الغضب المحمود وهو الذي يقع إذا انتهكت محارم الله أو الغضب لظلم يقع على الشخص نفسه أو ظلم لا يرضه لأناس آخرين. ففي هذه المواضع لا يعيب الغضب الشخص، بل يرفعه ويعلي من شأنه إذا كانت غضبته لله سبحانه وتعالى أو لنصرة الحق.

وقد روي عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أنه قال: "إذا لم يغضب الرجل لم يحلم؛ لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب"¹. فالغضب خصلة بشرية، ولكن علينا التحكم بها لكيلا تصدر عنا بعض الأقوال أو الأفعال التي قد نندم عليها، بل نغضب في المواضع التي تستحق الغضب ونحلم في المواقع التي تستحق الحلم ونعفو عند المقدرة. هذه هي الخصال التي علمنا إياها ديننا الحنيف وهي خصال عظيمة تهدف إلى ضمان حياة صالحة وكريمة لكل إنسان والأخذ بأيدي كافة الناس لبلوغ سعادة الدارين، الأولى والآخرة.

¹ روضة العقلاء، ابن حبان البستي، ص: (141).

ومن نواقض حسن الخلق الظلم، فمن حسنت أخلاقه لا يحب أن يظلم أحداً أو يُظلم من قبل أحد. والظلم كله ممقوت ويكون أكثر مقتاً إذا كان قد وقع من قبل الأقارب وذوي الأرحام أو عليهم؛ لأن وقعته على النفس يكون أقسى وأشد، كما قال طرفة بن العبد¹:

وْظَلَمْتُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاظَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ

من حسنت أخلاقه يربأ بنفسه عن الظلم ويجاهدها حتى لا يقع فيه لأنه سبب رئيس في انتشار الكراهية وعدم الرضا بين أفراد المجتمع، وإن انتشر على نطاق واسع في المجتمع فهذا يعني أن ذلك المجتمع قد أزفت ساعته وأنه إلى زوال. ودائماً ما تكون عاقبة الظلم وخيمة وإن لم تظهر أثاره المدمرة بسرعة فإنه كالنار تحت الرماد سيشتد لهيبها في أي لحظة.

وقد نرى في أيامنا هذه في بعض المجتمعات الإسلامية ظلماً يشيب له الوليد ولم يسلم منه حتى الأطفال ولا النساء ولا الصغير ولا الكبير، بل ويُقتل الأطفال عياناً دون أن يرف جفن للظالمين، فإن لم تتدارك تلك المجتمعات نفسها فستكون عاقبتها وخيمة. وقد يتساءل البعض قائلاً: إذا كان كل هذا الظلم قائماً والقائمون عليه يتمتعون بالصحة والعافية ولا شيء حدث لهم فإنهم ناجون وناجحون في حياتهم لأنهم حققوا مبتغاهم! الإجابة على ذلك هي أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل وسينال الظالمون ما

¹ ديوان طرفة بن العبد.

يستحقونه في الدنيا والآخرة وإن أملى الله سبحانه وتعالى للظالم فهذا لا يعني أنه نجا بفعلته، بل ربما أجلت له العقوبة لينال عذاباً أكبر وأخزى في الآخرة.

هناك أيضاً بعض الممارسات السيئة التي تندرج ضمن نواقض حسن الخلق كالدخان والشيشة ولباس مالا يليق بالمسلم لباسه من الثياب الممزقة وما إلى ذلك. وفي لبس مثل هذه الثياب تقليد أعمى لغير المسلمين وهذا مما نهى الشرع الحنيف عنه. وعلى كل مسلم أن يكون فخوراً بإسلامه، فليس هناك نعمة أنعمها الله تعالى علينا أعظم من نعمة الإسلام، فالإسلام هو طريق حياة وهو سبيلنا إلى السعادة في الدارين ودونه الشقاء في الدارين حتى لمن عاش غنياً لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المنغصات كالمرض وموت الأقارب والأحبة والمصائب التي تتوالى على الإنسان سائر حياته، إذ لا يوجد شخص في الكون لا يمر بهذه المنغصات، فالحياة الحقيقية هي حياة الآخرة لأنها خالية من هذه المنغصات ومن غيرها. قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)¹. فَذِكْرُ اللَّهِ جَل وَعَلَا يُوجِدُ فِي النَّفْسِ الطَّمَأِينَةَ إِضَافَةً إِلَى أَجْرِهِ الْعَظِيمِ لِمَنْ دَاوَمَ عَلَيْهِ وَبِهِ تَتَيَسَّرُ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَتَسْوَدُهُمُ السَّكِينَةُ وَالطَّمَأِينَةُ، فَقَدْ قَالَ سَبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)².

¹ سورة طه: (124).

² سورة الرعد: (28).

ومن النواقض الأخرى الحسد والتسرع في الأقوال، والأفعال، وإطلاق الأحكام، والجهل. أما الحسد فهو داء يصعب دواؤه وهو أقدم داء عرفته البشرية، فبسببه رفض إبليس أن يسجد لآدم عندما أمره الله جل وعلا بذلك فقال الله سبحانه وتعالى: (قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)¹. فكان الحسد هو سبب ضلال إبليس وبسببه رفض أن يسجد كما أمره الله سبحانه وتعالى وبسبب الحسد كَتَبَ على إبليس الشقاء وعلى كل من اتبعه.

وكان الحسد سبب أول جريمة قتل عرفتها البشرية عندما قتل قابيل أخاه هابيل وقد وقعت هذه الجريمة بسبب الحسد أيضاً، وذلك عندما قربا قربانا فُقِبَ من أحدهما ولم يُقَبَل من الآخر فحسده على ذلك وقرر قتله كما ورد في القرآن الكريم: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ... قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)². هذه هي الجريمة الأولى التي يرتكبها الإنسان على وجه الأرض ووقع القتل بعد أن حسد أحد الأخوين الآخر؛ لأن الله سبحانه وتعالى تقبل من أخيه ولم يتقبل منه. قصة إبليس وقابيل تظهر الآثار الكارثية للحسد وكيف يؤدي الحسد بصاحبه وأنه ربما يقوده إلى تصرف يندم عليه طوال حياته مثل قابيل، أو تصرف سيتسبب بشقائه وهلاكه وخلوده في جهنم مثل إبليس.

¹ سورة الأعراف: (12).

² سورة المائدة: (27).

أما في حياتنا اليومية، فالكل يعلم أن الحسد يولد الحقد والكراهية بين الناس إذ إن الحسود يتمنى زوال النعمة من المحسود دونما سبب وهذا يتناقض وحسن الخلق لأن المسلم يحب الخير له ولغيره. فالمسلم أحيانا يرى نعمة أو ميزة معينة عند أحد أخوته من المسلمين وتعجبه فهنا يجب عليه أن يبارك له عليها ويتمنى له الخير ولا مانع من أن يرغبه أو أن يتمنى لنفسه مثل صاحبه مع الدعاء لصاحبه بالبركة وأن يبارك له الله تعالى فيما رزقه ويتمنى بقاء وبركة نعمة صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحسد والغبطة.

في سياق الحديث عن النعم، لا يمكن لشخص أبداً أن يحس بالقيمة الحقيقية للنعمة حتى يفقدها. ويمكن لنا أن نحس جزئياً بهذا النعم إذا فكرنا بمن فقدناها وعندما نقارن حياة المسلمين بغير المسلمين ونتأمل كافة جوانب حياتهم وجوانب حياتنا فقد يتميزون عنا أو يتفوقون علينا ببعض الجوانب مثل الجوانب المادية والخدمية. ومن هنا يجب أن ندرك بأن الجوانب المادية ليست كل شيء، فمن رزق مالا كثيراً، لكنه غير مرتاح نفسياً أو ربما يعاني من مرض معين حيث إن كل ماله ربما لا يستطيع أن يشفيه منه، فما قيمة ماله مع هذا المرض! أما المسلم فأمره كله خير فهو مأجور على المرض إن صبر وحمد الله في الدنيا وله جزيل الثواب في الآخرة، لذلك ينبغي للمسلم أن يكون حَمَّاداً لله على كل حال وأن يحمده ويشكره في السراء والضراء.

ومن نواقض حسن الخلق الجهل وضده العلم والعلم يبني والجهل يهدم كما قال

الشاعر¹:

العلمُ يبني بيوتاً لا عمادَ لها والجهلُ يهدمُ بيوتَ العزِّ والكرمِ

الجهل داء عضال لا يشفيه إلا نقيضه وهو العلم، والأمم يستحيل لها أن تنهض إلا إذا تصدرها العلماء والحكماء ومتى ما تصدرها الجهالُ فكبر عليها أربعاً، لأنها تكون قد دخلت مرحلة الموت السريري أو الاحتضار الذي لا فواق بعده ولن تبرأ منه مالم يتغمدها الله سبحانه وتعالى برحمة منه ويمنَّ عليها ببعض العلماء والرجال المصلحين.

يُعدُّ الجهلُ أعظم هادم للمجتمعات والأمم وهو السبب الأول في تراجعها وتخلفها عن ركب الحضارة، كما أن الجهل يقلل من احترام الأمم الأخرى للأمة الجاهلة، بل ويفتح عيون تلك الأمم لمحاولة السيطرة عليها والتحكم بها واستغلال ثرواتها. ومن نواقض حسن الخلق الكذب والخيانة، فمن حسن خلقه يبتعد عن كل ما يشوّهه، بل ويعمل على تهذيب خلقه ومساعدة الآخرين على تهذيب أخلاقهم فبحسن الخلق ترقى الأمم والمجتمعات وتزدهر الحياة، كما قال الشاعر²:

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنَّ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

¹ ديوان أحمد شوقي.

² المرجع السابق.

الحماقة من نواقض حسن الخلق أيضاً، ويستحيل أن يجتمع في إنسانٍ حسن خلق وحماقة. والحماقة تختلف عن الجنون، فالمجنون معذور ومرفوع عنه القلم لأنه لا يدرك ما يفعل ولا يستوعب ولا يدري إن كان سلوكه أو تصرفه صحيحاً أم خاطئاً، ولكن الأحمق هو من كان لديه قدرةٌ على التمييز لكنه يتصرف ببلادة وبدون تفكير في العواقب. والفرق بين الاثنين كبير لأن المجنون لديه مرض عقلي مستعصٍ لا يمكن علاجه، والأحمق سليم العقل، لكنه لا يستخدم عقله للتفكير بالشكل الصحيح رغم أنه يستطيع التفكير إن هو أراد ذلك، وصدق الشاعر إذ قال:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

ومن نواقض حسن الخلق التشدد في المجادلة والحديث والنقاش مع قلة العلم ومن ذلك الأمور الشرعية، وإذا اجتمع التشدد مع الجهل فإنهما يشكلان داء عضالاً يصعب شفاؤه. إن ديننا الإسلامي دين معتدل يحث على الاعتدال والوسطية في كل شيء وكما قالت أمنا عائشة، رضي الله عنها وعن أبيها، (ما خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِثْمٌ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ)¹. فاليسر مطلوب والوسطية مطلوبة لأنهما أنفع وأدوم للحياة وبذلك يستطيع الإنسان أن يستمر في هذه الحياة دون أن يحمل نفسه ما لا تطيق.

¹ رواه البخاري.

وهناك فرق كبير بين المتشدد والمعتدل لأن المعتدل هو الذي يتبع الوسطية وغالبا ما تكون نفسه طيبة ويتمنى الخير للجميع ولا يبحث عن زلات المسلمين وهو خلاف المتشدد الذي يشعر أن هدفه الأول هو إثبات أن بعضاً أو كثيراً من المسلمين على خطأ وليس منهم على الطريق المستقيم إلا هو ومن اعتنق نفس أفكاره، بينما يفكر المعتدل بصالح المسلمين ويلتمس لهم العذر ويدعو لهم بالهداية. إن أفكار بعض المتشددين بعيدة عن جوهر الإسلام لأن الإسلام يدعو إلى الخير ويدعوا إلى اللين واليسر والتعامل برفق مع المسلمين ويحث كل مسلم على الدعاء لجميع المسلمين.

المتشددون غالباً ما يبحثون عن زلات وأخطاء المسلمين والمعتدلون إذا لاحظوها دعوا لإخوانهم بالهداية والصالح والرشاد ولا يحب المعتدل أن يرى المسلمين على هذه الحال، بينما المتشدد إذا علم شيئاً من هذه الأمور فإنه يشعر كما لو أنه اكتشف اكتشافاً عظيماً سيكون له تأثيراً بالغاً على مسار حياة البشرية على هذا الكوكب! عند اكتشاف بعض هذه الأمور، يبدأ أحياناً هذا المتشدد بالدعاء على المسلمين بدلا من الدعاء لهم بالهداية كي يردهم الله جل وعلا إلى دينهم رداً جميلاً. والمعتدل همه صلاح المسلمين بينما المتشدد همه إثبات أن من خالفه الرأي على خطأ وإن كان من خالفه الرأي محقاً.

يجب على المسلم التمسك بحسن الخلق والابتعاد عن كل نواقضه، وكذلك إحسان الظن بالمسلمين خاصة عندما يتكلم عن عامة المسلمين وكذلك تجنب مبدأ

التعميم فهذا المبدأ غالباً ما يكون مغلوفاً. ومثال ذلك إذا رأيت سلوكاً لا يسرك في مدينة مسلمة، فالبعض ربما يقول إن أهل هذه المدينة فاسدون دون أن يكون لديه معلومات كافية عنها ويكون قد أطلق حكمه بعد أن رأى سلوك بعض سكانها. هذا هو مبدأ التعميم وهو مبدأ أعوج ولن يستقيم لأنه يستحيل أن يكون كل سكان تلك المدينة على شاكلة واحدة وإن رأى سلوك كثير من الناس فهناك أناس أكثر لم ير سلوكهم؛ لذا يجب الحذر من هذا الأمر.

يجدر بالمسلم عندما يرى ما لا يسره بين المسلمين أن يدعو لهم بالهداية لا أن يدعو عليهم وليتذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما آذاه الكفار كثيراً، لم يدع عليهم رغم ذلك الأذى، ولكنه قال صلى الله عليه وسلم: (بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ، لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)¹. هذا هو موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار، فما بال المتشدد يشتد على المسلمين أنفسهم ويصفهم بما لا يليق بهم. ومن هنا لا يسعنا إلا أن نقول لا حول ولا قوة إلا بالله وهدانا الله وإياهم والمسلمين أجمعين إلى ما يحب ويرضى.

¹ أخرجه البخاري ومسلم.

الفصل العاشر

حسن الخلق وصنائع المعروف

حسن الخلق وصنائع المعروف وإغاثة الملهوف من السجايا الحميدة التي تكمل بعضها البعض. وحري بمن حسن خلقه أن يتسم بتلك السمات الحسنة لأن من حسن خلقه لا يمتنع عن مساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف، وإنما يهب لنجدة كل من احتاج ذلك من البشر وإن كان من المسلمين فمن باب أولى لأن المسلمين لهم حقوق على بعضهم البعض. وصاحب الخلق الحسن وصانع المعروف يلقي ثمرات عمله في الدنيا والآخرة وإذا عثر فتقال عثرته ولن يضيعه الله جل وعلا.

من القصص الجميلة في تاريخنا وأدبنا العربي عن حسن الخلق وصنائع المعروف قصة عكرمة الفياض وخزيمة بن بشر. ذُكر في كتب التاريخ أن خزيمة بن بشر كان صاحب مروءة وكرم وكان يعمل بالتجارة وهو ميسور الحال وكان ممن يترددون على أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. في أيام من حياته، مرت عليه أيام عصبية فقد فيها ماله وأثقله الفقر وقد ساعده بعض أصدقائه لفترة من الزمن، لكنه اعتزل الناس بعد أن طال وقت عسرته وجلس في بيته لشدة فقره بعد الغنى الذي كان فيه.

عندما اعتزل الناس افتقده بعض أصحابه وذكروه عند والي الجزيرة عكرمة الفياض وكان يسمى بالفياض لكرمه وجوده، فبدأ بالسؤال عنه حتى أخبروه بخبره. ألم عكرمة ما سمعه عن خزيمة فحمل معه أربعة آلاف دينار وغطى وجهه بلثام وتوجه إلى دار خزيمة ليلا كيلا يعرفه أحد. عندما وصل وطرق الباب، خرج إليه خزيمة فدفق المال إليه وقال:

أصلح بهذا شأنك. قال خزيمة: من أنت جُعِلت فداك؟ قال الفياض: ما جئتكَ الساعة لتعرفني، فقال خزيمة لن أقبله حتى تعرف عن نفسك! فقال الفياض: أنا جابر عثرات الكرام. دخل خزيمة بيته وهو لا يعلم من أعطاه ذاك الكيس ولا يدري ما بداخله وقال لزوجته أسرجي لنا لنرى ما فيه فإن كان مالا فقد أتانا الله بالفرج.

رجع عكرمة إلى بيته وكانت امرأته قد افتقدته فساورتها الشكوك حول خروجه بمنتصف الليل، وظنت أنه قد تزوج. قال لها لم أخرج لمثل هذا، ولكنها اشتاطت غضبا لأنه خرج منفردا دون حرس ودون علم أهل بيته. لم يرد عكرمة أن يخبرها لأنه لم يرد أحدا أن يطلع على ما فعل سوى الله جل وعلا، ولكنها أصرت، فقال: أخبرك، ولكن اكتمي عني. ولما وعدته بالكتمان، أخبرها بما حدث.

في الصباح، أصلح خزيمة أموره بما حصل عليه من مال وتجهز بعدها لزيارة الخليفة، سليمان بن عبد الملك. وعندما دخل على الخليفة سأله قائلاً: ما أبطأك عنا يا خزيمة؟ وكان سليمان يعلم عن مروءة وشهامة خزيمة ويقدر له ذلك. عندها شرح خزيمة سوء الحال الذي عصف به، وأخبره أيضا بخبر الرجل الذي زاره ليلا وأعطاه المال، سأل الخليفة عن الرجل، ولكن خزيمة قال كان الرجل متنكرا ولم يزد على قوله "جابر عثرات الكرام". قال الخليفة: لو عرفناه لكافأناه وأعناه على مروءته.

خلال زيارة خزيمة، كتب له الخليفة بولاية الجزيرة أي أنه رجع واليا عليها وبناء على كتاب الخليفة تم عزل عكرمة الفياض. بعد وصول خزيمة سلمه عكرمة دار الحكم ليكون واليا على إمارة الجزيرة، وخرج عكرمة إلى بيته. في هذه الأثناء، وجد خزيمة نقصا في بيت المال فطلب من عكرمة سداد ما نقص من مال، فقال عكرمة: ما عندي من ذلك شيئا، فأمر خزيمة بحبسه.

بعد ذلك، علمت زوجة عكرمة وتوجهت إلى خزيمة وهي تعلم ما صنع زوجها له في وقت شدته التي واجها، فقالت له يا خزيمة: ما هكذا يصنع بجابر عثرات الكرام! وقعت هذه الكلمات على خزيمة كالصاعقة أو أشد، لأنه علم أنه أساء لمن أكرمه، بل وكان سببا في توليه الإمارة لأنه هو الذي أقال عثرته وأعطاه المال الذي مكنه من الذهاب إلى أمير المؤمنين. عندها أدرك خزيمة الخطأ الذي ارتكبه، فتوجه هو ومن كان معه في المجلس إلى مكان حبس عكرمة وأطلقه بيده.

بعد ذلك توجه خزيمة وعكرمة إلى أمير المؤمنين، وعندما أبلغوا الخليفة بقدوم والي الجزيرة راعه ذلك لأنه جاء دون طلب من الخليفة فقدر أنه لابد من أمر عظيم وراء مجيئه دونما طلب. لما دخل قال الخليفة: ما وراءك يا خزيمة؟ قال خزيمة: خير يا أمير المؤمنين، فقد ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أقدمه بين يديك، إنه عكرمة الفياض. أمر الخليفة بإدخال عكرمة عليه، فقال سليمان "ما كان خيراك لخزيمة إلا وبالا

عليك، يا عكرمة! ومن ثم أمر الخليفة بعشرة آلاف دينار لعكرمة ومثلها لخزيمة وولى عكرمة الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، ثم قال له أمر خزيمة إليك، إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته، فقال عكرمة: بل أردّه إلى عمله. أما ولاية الجزيرة خلال العهد الأموي، فهي تضم المنطقة الواقعة بين الشام والعراق والأناضول وهي تقع حاليا في شمال شرق سوريا وشمال غرب العراق وجنوب شرق تركيا، وحاليا يطلق على المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات الجزيرة.

الشاهد من هذه القصة أن حسن الخلق وصنائع المعروف والمروءة والكرم هي خصال نبيلة لن يندم عليها صاحبها وإنما ستكون درعا له في مواجهة الشدائد والملمات. فقد عاد حسن الخلق ومروءة كل من عكرمة وخزيمة عليهما بالخير. أما خزيمة فقد أقيمت عثرته وعاد عاملا للخليفة على الجزيرة وأما عكرمة فقد تحولت محنته إلى منحة من خلال المكافأة التي حصل عليها من أمير المؤمنين.

هذه القصة أيضا تؤكد الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها المسلمون والعرب وتبين كيف أن كل واحد من أبطال القصة الثلاث، سليمان وخزيمة وعكرمة، كان يقدر ويجل صنيع الآخر، بل ويكافئه على حسن صنيعه وحسن خلقه، كما تبرهن القصة على حسن الخلق الذي كان يتمتع به كافة أفرادها. أما عكرمة فقد ساءه ما حصل لخزيمة فهب لنجدته، وأما خزيمة فقد وضع عكرمة بالسجن لسوء فهم حول النقص في بيت مال

المسلمين، ثم إن عكرمة لم يحقد على خزيمة لما فعل به، لأنه إنما أراد بمساعدته وجه
الله جل وعلا وأراد عدم إحراج ذاك الرجل ذو المروءة من خلال المال الذي قدمه له. أما
الخليفة فقد قابل الإحسان بالإحسان وأجزل العطاء لكليهما.

لذلك صنائع المعروف لا تضيع، بل تقي صاحبها مصارع السوء، كما قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ"¹. أي أن الله جل وعلا
ينجي من يصنع المعروف من الهلكة والسقوط ويحفظه جزاء لما فعل من معروف وخير
مع الناس. وهذا دافع قوي لكل مسلم للعمل على زيادة حسن خلقه وإيمانه والاستكثار
من أفعال الخير في كل زمان ومكان.

عندما نتأمل ما تقدم من قصة جابر عثرات الكرام وما حدث له، ندرك أن حسن
الخلق وفعل الخير يستحقا التضحية وبذل الجهود لأنهما يعودان على صاحبيهما بخير
مزدوج عاجله في الحياة الدنيا وآجله في الآخرة. ومن يفعل المعروف والخير لن يندم عليه
خاصة إذا كان يبتغي بفعله وجه الله سبحانه وتعالى. يجب أن نعلم أيضا أن هذه الأيام
التي نعيشها ستمضي وبسرعة وستصبح من الماضي وكل شيء يكون قد تم تسجيله لنا أو
علينا، فإن كان خيرا سرنا ذلك وإن كان خلاف ذلك ندمننا عليه. وما دمنا نعلم هذه

¹ أخرجه الحاكم.

الحقيقة، فحري بنا أن نفعل الأشياء التي تسرنا فيما بعد ونتجنب أي فعل نندم عليه لاحقاً، وقد أحسن الحطيئة عندما قال¹:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

يرز هذا أهمية التحلي بالأخلاق الحميدة وفعل الخير، فبهذا تنعم المجتمعات المسلمة بجو من الألفة والمودة، ويتجنب أفرادها ما قد يثير مشاعر الحسد أو البغضاء. كما يسهم ذلك في تعزيز تماسك المجتمع وتقويته، ودفع أفراده لبذل المزيد من الجهد في خدمته، الأمر الذي يزيد من روح العطاء والإنجاز، ويغرس في النفوس حب الخير لأنفسهم ولغيرهم.

¹ ديوان الحطيئة.

الفصل الحادي عشر

العفو والتسامح من حسن الخلق

العفو عند المقدرة والتسامح من السمات والسجايا التي تؤكد على حسن الخلق
ومن حسن خلقه لا يفكر بالانتقام وإلحاق الضرر بالآخرين حتى لمن أساء إليه لأن حسن
خلقه يقف حائلا بينه وبين ذلك. هناك كثير من الأمثلة والقصص التي تؤكد هذا مثل
قصة يوسف عليه السلام وإخوته بعد أن من الله جل وعلا عليه ورفع مكانته، إذ إنه عفا
عنهم ودعا لهم. كذلك قصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة عندما عفا
عن كفار قريش وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

إن العفو والتسامح من شيم الأنبياء والصالحين ومن حسن خلقهم من الناس. إن
هذا الأمر ليس بالأمر السهل لأن الإنسان يسامح فيه من أساء إليه أو آذاه مع قدرته على
الانتقام وأخذ حقه بيده، ولكنه يتنازل عنه ابتغاء ما عند الله سبحانه. في مثل هذه
المواقف يذكر المسامح نعمة الله تعالى عليه إذ وفقه لفعل الخير فيتجاوز عن حقه ويعفو
وهذا لا يزيد من يقوم بهذا الفعل إلا رفعة وعزا.

في قصة يوسف عليه السلام مثلا عظيما عن حسن الخلق والعفو عند المقدرة،
فقد عفا عن إخوته بعد كل أفعالهم ومن ذلك إلقاءه في الجب وما تبعه من كثير من المحن
والشدائد إذ عاش بعيدا عن أبيه وقومه وهو لا يزال غلاما، بل وكان رأي البعض أن يقتلوه،
إذ قالوا: (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا

صَالِحِينَ¹). بعد هذا العناء وبعد أن مكنه الله جل وعلا في الأرض، أكرم إخوته وعفا عنهم، بل ودعا لهم (قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)². هكذا قابل نبي الله يوسف عليه السلام الإساءة بالإحسان والعدوان بالعفو والمغفرة، أما قوله لا تثريب عليكم يعني أن اليوم لا لوم عليكم ولا توبيخ، بل عفو وتسامح.

أما في القصة الثانية، فقد فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثلما فعل يوسف عليه السلام، بعد أن مكنه الله جل وعلا من فتح مكة حيث لاذ المشركون بالبيت الحرام وكانوا قد آذوه كثيرا قبل هجرته إلى المدينة وبعدها، صلى الله عليه وسلم. عندما فتح الله مكة لرسوله والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا الكفار: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرُونَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟). قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ادْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ)³. في هذا الموقف، قابل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإساءة بالإحسان ولم يلهمهم أو يوبخهم على ما فعلوه فيما قبل، بل قال لهم: أنتم الطلقاء أي الأحرار.

لو تأملنا هاتين القصتين نستخلص منها دروسا عظيمة لأن الإحسان والصفح يؤثر في النفوس تأثيرا بالغا ويجعل الطرف الآخر يشعر بالندم لما اقترفت يدها. في القصة الأول،

¹ سورة يوسف: (9).

² سورة يوسف: (92).

³ سيرة ابن هشام: ج 2 (412).

كانت نتيجة عفو يوسف عليه السلام أن شعر إخوته بالندم الشديد والخطأ العظيم الذي ارتكبوه بحقه وعلموا يقينا أن الله سبحانه وتعالى أظهره عليهم وكافأه على ما لقي منهم واعترفوا بذلك عندما (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آتَيْنَا لَآءِنًا وَإِن كُنَّا لَخٰطِئِينَ)¹. الاعتراف بالذنب يجعل المسامح أيضا أكثر تسامحا وإحسانا عندما يستشعر ظهور وعلو الحق على الباطل وإن طال الزمن باستمرار الباطل، فالباطل قد يستمر إلى حين، ولكن لا بد له من الانتكاسة في يوم من الأيام أو لحظة من اللحظات التي قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة نسبيا، لأن الحق لا بد له من أن ينتصر في النهاية.

وفي القصة الثانية، ظهر أيضا تأثير كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم على الكافرين إذا دخل الناس في دين الله أفواجا بعد إحسان النبي صلى الله عليه وسلم إليهم رغم إساءتهم. لقد كان فعل النبي صلى الله عليه وسلم مثلا عظيما في الإحسان والبر والعفو عند المقدرة للأجيال القادمة من خلال عفوهم عن أهل مكة وهذا يدل على نبوته وعظيم خلقه صلى الله عليه وسلم.

تشير القصتان إلى أن أنبياء الله، جل وعلا، قد قابلوا الإساءة بالإحسان والعدوان بالمغفرة وفي الحالتين لم يوجهوا اللوم لمن آذاهم، بل توجهوا إليهم بالكلام الطيب والدعاء. إن هذه الأفعال جدير بها الأنبياء فهم صفوة خلق الخالق، جل وعلا، ويجدر

¹ سورة يوسف: (91).

بكافة الناس الاقتداء بهم والسير على نهجهم لتحقيق التسامح والعدل والحفاظ على المروءة وصنع المعروف بين الناس.

على أية حال، الخطأ دائما موجود بين الناس وهو جزء من حياة الناس الطبيعية والأصل أن الخطأ يعالج بالصواب وليس بخطأ مثله لأن ذلك يساهم في تعقيد الأمور بين الناس، لكن عندما يسامح الناس من أخطأ بحقهم، فإن هذا يعود بفوائد كثيرة على كافة الأطراف. أما الطرف المسيء فإنه يشعر بسوء فعله بعد العفو عنه، وأما المحسن وهو من يعفو فلا يزيده عفوه إلا رفعة في شأنه. وكما أسلفنا، فإن ما نتلكم به هنا فهو يصح على العموم، ولكن لكل قاعدة شواذ لأن بعض الأصناف من البشر لا ينفع معهم معروف ولا إحسان، بل ربما يزيدهم هذا لؤما وتمردا كما قال الشاعر¹:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

ولكن الأصل في هذا أن المسلم يعفو لوجه الله سبحانه وتعالى وليس من أجل البشر، لذلك فهو يحصل على الثواب العظيم من الله جل وعلا على عفوه ومسامحته وإن قابله من عفا عنه بالجحود، فذلك لا يؤثر عليه كثيرا لأنه إنما فعل فعله وهو يبتغي رضوان الله سبحانه وتعالى.

¹ ديوان المتنبي.

إن التسامح وحسن الخلق والمعاملة الحسنة تؤثر على الناس وفي النفوس أكثر من سواهم إذا إن العفو يجعل من ارتكب الخطأ يتأمل ملياً بما حصل له ولمن سامحه وكيف انقلبت الأمور حيث إن الطرف الأول الذي عفا قد فعل الخير والمعروف وينتظر الجزاء من الله سبحانه وتعالى بينما باء الطرف الثاني الذي أخطأ بخيبة الأمل وسوء المنقلب.

الفصل الثاني عشر

حسن الخلق وعزة النفس

عند التأمل في هاتين الخصلتين العظيمنتين، حسن الخلق وعزة النفس، قد يطرأ على بال القارئ بأنه يصعب الربط بينهم أو أنه لا علاقة لهم أصلاً ببعض لأنه قد نجد شخصاً يتمتع بعزة النفس، ولكن يؤدي غيره أو يتكلم بما لا يليق وهذا يتنافى تماماً مع حسن الخلق. ولكن بالنظر إلى الطرف الآخر من المعادلة، يصعب أن تجد شخصاً يتمتع بحسن الخلق ولا يتمتع بعزة النفس لأن حسن خلقه يأبى عليه أن يذل نفسه، ومن هنا تنشأ العلاقة الوطيدة ما بين حسن الخلق وعزة النفس. ومن أعظم الدوافع التي تحث الإنسان على حسن الخلق الإيمان بالله جل وعلا.

الإيمان بالله جل وعلا يحث المؤمن على حسن الخلق ويزيد المؤمن عزة لأنه لا يتوكل ولا يعتمد إلا على الله، سبحانه وتعالى، مما يمنحه مصدر قوة وعزة لا مثيل لها ولا يستطيع مخلوق آخر منحه مثل هذه القوة. إذا ما تمتع المؤمن بهذا فإنه تشتد عزيمته ولا يقف في وجهه حائل أمام تحقيق ما يصبو إليه. إن من أكثر الأمور التي تجعل الإنسان يشعر بالجنون أو غشيان المهام العظيمة والتحديات في هذه الحياة هو الموت لأن الناس عموماً يحبون الحياة ويتمسكون بها لأسباب كثيرة ومن هذه الأسباب عدم اليقين بما سيحدث للمرء بعد الموت أو الخوف من تلك المرحلة الغامضة، وهذا لا يكون مع المؤمن حسن الإيمان، لأن المؤمن يحسن الظن بربه كما كان يحسن التوكل عليه في حياته.

في حالة المؤمن، عندما يتغلب على الخوف من الموت تستوي عنده الحياة والموت وربما قدم الموت في بعض الحالات على الحياة إرضاء لربه، سبحانه وتعالى. ومن هنا فإنه لا يحسب أي حساب للأهوال التي يواجهها وطبعاً لا نعني بهذا التهور إذ أن الشجاعة هي مرحلة وسط بين التهور والجبن. فإن طلب المؤمن الموت فهذا أبداً لا يعني التهور لأن كل خطوة عنده مصحوبة بحسابات دقيقة جداً وما أقدم المؤمن على الموت إلا لتحقيق غاية أسمى له ولغيره كأن يقوم بنصرة الحق أو الدين؛ فالغاية الأولى هي الشهادة في سبيل الله ونيل رضوانه والجنة وهذا أسمى من الحياة كلها والغاية الثانية هي إعزاز دين الله وتمكينه لإخوانه لينعم من بعده بالعزة والكرامة أيضاً.

لذا فإن الإيمان بالله، سبحانه، يمنح المؤمن حصانة ضد الخوف والجبن رغم أن هاتين الخصلتين مغروستان في طبائع البشر على كل حال، ولكن الإيمان يصقلهما ويحولهما إلى مصدر قوة لا ضعف لذلك كان الصحابة، رضوان الله عليهم، ومن تبعهم لا يحسبون حساباً للموت أثناء مواجهة العدو مما زاد في إقدامهم وكان أحد الأسباب الرئيسية لانتصاراتهم بعد توفيق الله جل وعلا. وهناك الكثير من القصص الرائعة من تاريخنا والتي تجسد عزة النفس في أبهى صورها مثل قصة عبدالله بن حذافة السهمي وملك الروم والتي سنتطرق لها بإيجاز.

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان قد وجه جيشا إلى الروم وكان بينهم عبد الله بن حذافة السهمي وهو من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم. خلال هذه الغزوة أسره الروم هو ومجموعة من المسلمين، اختلف الروايات في عددهم، فذهبوا به إلى ملكهم وقالوا له: إن هذا الرجل من أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم. سأله الملك، هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي؟ فقال عبد الله: لو أعطيتني كل ملكك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد، صلى الله عليه وسلم، طرفة عين ما فعلت. قال الملك: أقتلك إذن. قال عبدالله: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبا من بدنه ورجليه، وهو يعرض عليه وهو يأبى. بعد ذلك أمر به، فأنزل ثم دعا بقدر، وصب فيه حتى احترق، ثم دعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي في القدر، والملك في هذه الأثناء يعرض عليه النصرانية، لكن عبدالله لم يستجب له.

بعد ذلك، أمر به أن يلقي في القدر، فلما ذهبوا به بكى، فقيل له: إنه قد بكى فظن أنه جزع، فقال: ردوه، فعرض عليه النصرانية فأبى، فقال: ما أبكك إذن. قال: أبكاني أني قلت في نفسي تلقى الساعة في هذا القدر، فتذهب فكنت أشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في سبيل الله. قال له الملك: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي سبيلك، فقال عبد الله: وتخلي سبيل جميع أسرى المسلمين، قال: وجميع أسرى المسلمين. قال

عبد الله: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله، أقبل رأسه ليخلي عني وعن أسرى المسلمين، فدنا منه فقبل رأسه، فدفع إليه الأسرى. بعد هذه الحادثة، قدم بهم على عمر فأخبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر فقبل رأسه.

لو تأملنا هذه القصة، نجد أن ما فعله عبد الله يتخطى حدود العقل والمنطق وما هو مألوف وما جبل عليه الناس، لأن الإنسان بطبعه يخاف العذاب والموت، وهنا اجتمع شدة العذاب والموت معا. ورغم كل محاولات الروم لم يكثر عبد الله لما كان يدور حوله، بل على العكس شد ذلك من عزمته وزاده إصرارا. السؤال هنا، كيف يمكن لإنسان أن يتحمل هذا؟ الجواب معلوم، إنه الإيمان الذي منحه هذه القوة وجعله يحب الموت لأنه كان في سبيل الله جل وعلا. إن الإنسان عموما لا يتحمل مثل هذه العواقب إلا إذا كان مؤمنا أو مدافعا عن قضية ما ويؤمن بها إيمانا مطلقا. وقد يحصل هذا مع أي إنسان يؤمن بقضية أو إذا ما كان يدافع عن نفسه أو أهله أو وطنه، فإيمانه بتلك القضية أو ذلك الهدف هو الذي يجعله يواجه المخاطر ويتحمل العواقب بصرف النظر عن النهايات وكيف ستؤول إليه الأمور.

مثل هذا التضحية العظيمة قد تجدها بين بعض الناس ولا يشترط أن يكون من يقوم بها رجلا أو من جيل أو زمان معين فلا تخفى قصة ماشطة ابنة فرعون على كثير من

الناس. لقد سطرت هذه المرأة قصة رائعة في عزة النفس قهرت بها كبرياء فرعون الزائف وهزمت عزيمتها بأسه وبأس جنده. إن هذه القصة تعبر عن عزة نفس منقطعة النظير وعدم الرضوخ للباطل وإن كان في ذلك الموت. لقد روى ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ فقالوا: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كانت تمشطها فوق المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبي؟ فقالت: لا، بل ربي وربك ورب أبيك، فقالت: أخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم. فأخبرته فدعا بها وبولدها فقالت: لي إليك حاجة. فقال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنه جميعا. فقال: ذلك لك علينا من الحق. فأتى بأولادها فألقى واحدا واحدا حتى إذا كان آخر ولدها وكان صبيا مرضعا، فقال: اصبري يا أمه فإنك على الحق، ثم ألقيت مع ولدها، قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: تكلم أربعة وهم صغار: هذا وشاهد يوسف، وصاحب جريج وعيسى ابن مريم، عليه السلام.

السؤال هنا، من الذي منح هذه المرأة الصالحة القوة والصبر؟ خاصة حين رأت أبناءها يموتون أمامها وكان بإمكانها إنقاذهم، ولكنها قدمت الموت لنفسها ولأبنائها على أن تشرك بالله سبحانه من خلال الإقرار بربوبية فرعون. إيمانها بالله جل وعلا منحها القوة الكافية لتتغلب بها على فرعون. إن حرق امرأة ضعيفة وأبنائها الصغار ما هو إلا دليل

على جبن وذلة فالشخص الكريم أو الشجاع أو صاحب المروءة تأبى عليه شجاعته ومروءته أن يقوم بسلوك كهذا! هل من الشجاعة أو المروءة أن تقتل امرأة وأطفالا لغير سبب أو جريمة سوى قول تلك المرأة الله ري. لا شك أن هذا التصرف يدل على خسة وضعف وهوان وقد حاول فرعون أن يتغلب على هذه النقائص بفعل شنيع تأباه أي نفس بشرية سوية.

قد يقول قائل لو أن هذه المرأة رضخت لفرعون لأنقذت نفسها وأبناءها، ولكن هذا القائل يجب أن يتأمل في النتائج، فقد عاشت المرأة وأبناءها وهلك فرعون وعصبته وحفظ ذكرها بالخير ودونت سيرة فرعون بالشر، فشتان بينها وبينه. ثم لو أنها رضخت لفرعون فكم ستعيش، وهل ستخلد في الأرض؟ قطعاً لا! لذلك فقد أتت بالتصرف السليم وإن كان قاسياً، لأن ما عند الله، سبحانه وتعالى، خير وأبقى وهذه الحياة نهايتها موت سواء طال بالناس المقام أم قصر.

من هذا المنطلق، ينبغي على كل مسلم إكرام نفسه وصيانتها وحفظها من الوقوع في مواقع الزلل وكذلك عفتها والسمو بها عن النقائص. ومن الأمور التي تساهم في إعزاز النفس هي عدم التعلق بالمخلوق والتعلق فقط بالخالق؛ لذلك لا ترجو الثناء من مخلوق على شيء فعلته، بل ارج الجزء من الخالق، فهذا أعف لنفسك وأعز لها. واعلم أنه لا عز إلا بعز العزيز ولا ذل على الحقيقة إلا بذل المذل، فما العزيز إلا من أعزه الله وما الذليل

إلا من أذله الله. والله، سبحانه وتعالى، هو الذي يجير ولا يجار عليه فمن أعزه لم ولن يذله أحد ومن أذله الله تعالى فلن تجد له عزا ولو اجتمعت له الإنس والجن.

لقد كان العرب، خصوصا في الماضي، يحترمون الجوار ويتمنى كل منهم أن يكون جواره عزيزا، وكانوا يغيثون من استجار بهم وكانوا يحفظون الجوار كما يحفظون أنفسهم وربما أكثر سواء في الجاهلية أو بعدها في مرحلة صدر الإسلام وما تلاه. وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك من مختلف العصور كقصة السموأل الذي ضحى بولده في سبيل حفظ الأمانة والجوار.

بدأت قصة السموأل مع امرئ القيس عندما قرر امرؤ القيس التوجه إلى قيصر الروم طلبا لمدد منه لمواصلة حربه وثأره لمقتل أبيه ملك كندة. قبل التوجه إلى قيصر، أودع امرؤ القيس دروعا وسلاحا لدى السموأل، حيث كان ملوك كندة يتوارثونها ملكا عن ملك. وبعد وفاة امرئ القيس أرسل ملك كندة يطلب السلاح من السموأل، فرفض أن يعطي السلاح وأبلغ الملك أنه لن يسلمها إلا لمستحقيها وهم ورثة امرئ القيس. وبعد أن بلغ الملك هذا النبأ عاد وطالب بالسلاح مرة أخرى، لكن السموأل أكد أنه لن يخفر ذمته ولن يخون أمانته وسيحافظ على وفائه. عندها أيقن الملك الكندي بأنه لن يحصل على السلاح إلا بالحرب فأرسل الحارث بن أبي شمر، المعروف بالأعرج، إلى السموأل في جيش وطلب منه الأسلحة مرة أخرى وأبى السموأل، حيث كان متحصنا بحصنه المنيع (الأبلق).

حاصر جنود الملك الكندي حصن السموأل دونما جدوى وكان ابن السموأل في ذلك الوقت عائدا إلى الحصن من رحلة صيد، فأخذه رهينة وساوم القائد الكندي السموأل على أن يسلمه السلاح أو أن يقتل ابنه. عندها كان على السموأل الاختيار ما بين أمرين أحلاهما أمر من العلقم وهما أن يضحى بوفائه وعهده أو أن يخسر ابنه. وبعد تفكر في الأمر قال السموأل: ما كنت لأخون عهدي وأخفر ذمتي فاصنع ما شئت، فقام جنود الملك الكندي بقتل ابنه أمام ناظريه. عاد قائد جيش كندة خائبا ولم يكسب شيئا سوى المذمة والرذيلة التي لحقت به ولا زالت تلاحقه إلى يومنا هذا. وبعد ذلك وفي السموأل بعهده وسلم السلاح لورثة امرئ القيس واعتبره العرب بعدها رمزا للوفاء، فقال الأعشى يصف السموأل وحفظه لعهده¹:

كُنْ كَالسَّمَوَالِ إِذْ سَارَ الْهُمَامُ لَهُ فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَارِ
 جَارُ ابْنِ حَيَّا لِمَنْ نَالَتَهُ ذِمَّتُهُ أَوْ فِي وَامْنَعُ مِنْ جَارِ ابْنِ عَمَّارِ
 بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ حِصْنُ حَصِينٍ وَجَارٌ غَيْرُ غَدَّارِ
 فَقَالَ تُكَلُّ وَغَدْرُ أَنْتَ بَيْنَهُمَا فَاخْتَرِ وَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ
 فَشَكَ غَيْرَ قَلِيلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِذْبَحْ هَدْيِكَ إِنِّي مَانِعٌ جَارِي

¹ ديوان الأعشى

كان العرب يجلون الصفات الحميدة ويحترمون من يتمتع بها ويفتخرون بها ويوصون بالتمسك بها. وهذا يشير إلى انتشار كثير من المبادئ السامية مثل المروءة وعزة الجوار وحسن الخلق بين كثير من العرب قبل الإسلام وأنهم كانوا يبذلون حياتهم للدفاع عن هذه القيم. وعندما جاء الإسلام اعتنى بها أكثر وحث عليها لأنها تمثل الفطرة البشرية السليمة التي يجب أن يكون عليها الناس، ولكن هذه الفطرة قد تتأثر بكثير من الأمور كالصحة والبيئة المحيطة بالشخص. قال السموأل في لاميته الشهيرة يصف عزة الجوار¹:

وَمَا صَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا
عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ دَلِيلٌ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيزُهُ
مَنْعٌ يَرُدُّ الظَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلٌ
وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سَبَبَةً
إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ
يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا
وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
تَسِيلٌ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا
وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلٌ

في هذه الأبيات يفتخر السموأل بعزیز جواره على قلة عدد من معه، ولكن القلة يعوضها شيء آخر أهم منها بكثير وهي عزة الجوار التي تميز بها عن غيره. ويبين أيضا أنهم

¹ ديوان السموأل

لا يبالون بالموت إن كان الموت في سبيل غاية عظيمة وهذا ما جسده تماما عندما حفظ الأمانة وقدمها على حياة ولده.

بناء على ما تقدم، فإن حسن الخلق يرتبط ارتباطا وثيقا بعزة النفس وإنه يقويها ويحث المؤمن على الرفعة والسمو ليحفظ نفسه ويبعدها عن كل ما يندسها. ويساهم الإيمان وكذلك عزة النفس في دفع من تحلى بهما إلى التعلق فقط بالخالق وقطع الرجاء من المخلوق لأن المخلوق عاجز في أصله وهو عرضة للموت والهلاك والمرض وكثير من النقائص وعلى هذا فإن العاجز لا يزيد العاجز الآخر إلا عجزا، ومن أراد الفلاح فليتعلق بالحي الذي لا يموت والقوي الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الفصل الثالث عشر

هل حسن الخلق سجية فطرية تولد مع الإنسان أم

سلوك مكتسب؟

في الواقع، رغم أن حسن الخلق يبدو كسجية فطرية لدى بعض الناس لأنهم تمتعوا بهذه الخصلة الطيبة منذ نعومة أظفارهم، إلا أن الواقع وما نشاهده من أمثلة كثيرة من حياتنا اليومية يؤكد أن حسن الخلق هو سلوك مكتسب. هناك العديد من الأمور التي تساعد الإنسان على حسن الخلق على رأسها الدين والتعاليم الدينية والعلم بشكل عام ومن ثم البيئة ومخالطة الأخيار والكثير من الأمور الأخرى. قد تجد عائلة جميع أفرادها يتحلون بحسن الخلق وكأنهم ورثوه وراثته أو هكذا يبدو، ولكن في الواقع هذا من تأثير البيئة على الإنسان وليس وراثته كما يظهر، لأن هذه العائلة نفسها قد تتغير أخلاق أحد أفرادها سواء إلى الأفضل أو إلى الأسوأ. لذلك حسن الخلق ليس بثابت، بل هو متغير ويزيد وينقص وفقا للظروف والحوادث والأحوال التي يمر بها الإنسان ووفق البيئة التي يتواجد بها ومثال ذلك هو حسن الخلق بين بعض الأشخاص الذين يسافرون إلى دول أخرى.

بعض هؤلاء الأشخاص يحافظون على نفس الخلق والسلوك الذي اعتادوا عليه في بلدانهم وبعضهم يتخلون عن بعض الثوابت والعادات الحسنة التي كانوا يلتزمون بها كتغيير الملابس وأحيانا استخدام بعض الألفاظ وممارسة أمور أو أنشطة أخرى لا يمارسونها في بلدانهم الأصلي. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص، الخلق الذي يتحلون به ليس بثابت، بل يزداد أو ينقص أو يبقى على حاله وذلك يعتمد على قوة وإرادة الشخص نفسه والبيئة المحيطة به.

من أشد العوامل تأثيرا على الخلق وما يساهم في صقل أخلاق الناس هو الدين والالتزام بالشرعية لأنها تحث أتباعها على هذا، بل وَرَغَّبَتْهم به من خلال الأجر العظيم الذي وُعدَّ به من تمتع بهذه السجية الحميدة. فلن تجد مؤمنا حسن الإيمان بأخلاق سيئة لأنه يعلم أن الشريعة نهت عن كل ما هو سيء وبذيء، بدءا من الكلام الفاحش وغير الملائم وصولا إلى الأفعال التي قد تؤذي أي شخص آخر، بل وأوصت بمعاملة حتى الحيوان برفق وكافة المخلوقات الأخرى.

أما العلم فهو أيضا يصقل الأخلاق ويحسنها ويبدو ذلك جليا عندما نمعن النظر في سلوك أهل العلم من مختلف التخصصات حيث إننا نجد أن العلم يساهم في صقل أخلاق العلماء لذلك تجد سلوكهم وكلامهم مختلف عن عامة الخلق. ولا يشترط وجود هذه الأخلاق الحميدة في هؤلاء العلماء منذ الصغر، بل إن بعض العلماء ربما لم يتحل بأخلاق حسنة قبل الشروع في رحلة طلب العلم، ولكن العلم غير حياتهم رأسا على عقب ومثال ذلك مالك بن دينار وغيره، كما أشارت كثير من الروايات.

كان مالك بن دينار شرطيا وكان من المدمنين على شرب الخمر والمعاصي وظلم الناس، وفقا لبعض الروايات، إلى أن تاب فانقلبت حياته بعد ذلك من الضياع والمعاصي إلى مكارم الأخلاق والعلم والعمل النافع له ولغيره. بعد الضياع الذي عانى منه في شبابه، عمل بجد حتى يعوض ما فاتته وانكب على طلب العلم حتى أصبح من أشد الناس تأثيرا

على الآخرين ولعب دور المصلح الاجتماعي إذ كان يدعو الناس إلى الخير وصالح العمل وما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة. ومن القصص التي رويت عن شدة تأثيره على الناس أنه دخل لص ليسرق من بيته ذات ليلة فلم يجد اللص شيئاً ليسرقه، فرآه مالك وقال له إنك لم تجد شيئاً من متاع الدنيا فهل ترغب بشيء من الآخرة؟ تفاجأ اللص بما سمعه، وقال نعم! ثم طلب منه مالك بن دينار أن يتوضأ ويصلي ركعتين. بعد أن فعل اللص ما طلبه مالك، خرج معه إلى المسجد وسأله أحدهم عن اللص، فقال جاء يسرق فسرقتاه.

الشاهد من هذه القصة أن مالك بن دينار رحمه الله تعالى لم يكن يتحلى بحسن خلق نتيجة المظالم التي ارتكبتها وسببها للآخرين، وإنما أصبح من كبار التابعين ومن أحسن الناس خلقاً بعد تعلقه بالعلم الشرعي والاستقاء منه. لقد كان للعلم تأثيراً كبيراً على مالك وحول حياته من الضلالة إلى الهدى ومن الظلام إلى النور وساهم بعدها بنشر هذا النور بين أفراد المجتمع فكان ناصحاً لنفسه ولغيره.

البيئة أيضاً تلعب دوراً مهماً في التأثير على سلوك وأخلاق الناس فمن نشأ في بيئة صالحة يعتاد على مراعاة أمور كثيرة ويكون أشد حياءً من الشخص الذي نشأ في بيئة فاسدة. مثال ذلك بعض الأشخاص الذين عاشوا في بلدان عربية أو إسلامية ممن ينتشر فيها الفساد وخاصة الرشوة. لقد تربى هؤلاء الأشخاص على هذه الأمور الفاسدة فإن هم سافروا إلى بلد ملتزم بالقوانين ويحترم حقوق الأفراد فإنهم قد يلتزمون بها، ولكن متى ما

سنحت لهم الفرصة لتحصيل شيء عن طريق الرشوة، فإن بعضهم ربما يتبعون ضلالهم القديم إذا وجدوا من يستجيب لهم وإذا لم يردعهم دينهم أو حسن خلقهم. في بعض الدول العربية، يتعامل بعض الموظفين مع الرشوة وكأنها حق لهم ويأخذونها جهاراً نهاراً وعلى رؤوس الأشهاد. في مثل هذه الدول، يتعرض من حسن خلقه ومن التزم بدينه للظلم لأنه يعلم أن الرشوة حرام وهو لا يريد دفعها، ولكنه يجبر على دفعها رغماً عنه لأنها أصبحت أمراً معتاداً وشبه رسمي.

هناك أيضا العديد من الصور والأمثلة من حياتنا اليومية التي تؤكد بأن حسن الخلق سلوك مكتسب وأن للبيئة دوراً كبيراً في التأثير عليه سلباً أو إيجاباً. وليست البيئة فقط من يؤثر على الشخص، بل هناك أمور كثيرة منها المنصب والجاه وحتى المال أحيانا. فلو أن شخصاً من عامة الناس تسلم منصباً مهماً في الدولة، فهل أخلاقه ستبقى على ما كانت عليه؟ بالتأكيد لا! لأنه بعد المنصب الجديد سيغير من طريقة كلامه وسلوكه ليتناسب وحياته الجديدة مع المنصب الجديد، فيبدأ بتهذيب أخلاقه ويراقب كلامه حتى لا تصدر منه كلمة غير لائقة، وربما يكون تصرفه هذا رياء، لكنه جزء من السلوك الحسن.

بعد تولي المنصب، قد يحذر هذا الشخص من كثير من الكلمات والألفاظ التي ربما كان يرددتها كثيرا قبل المنصب؛ لأن سلوكه السابق لم يعد يجدي نفعا مع وضعه الجديد الذي يتطلب طريقة معينة في الكلام وربما تؤدي بعض الكلمات إلى عزله من منصبه.

وَيَحْسُنُ بهذا الشخص وأمثاله أن يكون الهدف من حسن خلقه هو إرضاء الله جل وعلا
لأن المنصب ليس بدائم والحياة نفسها ليست بدائمة فإن أحسن في عمله فله أجره وإن
أساء فعليه وزره، وقد أحسن ابن الوردي رحمه الله، إذ قال¹:

لا تُوازى لذة الحُكْمِ بما ذاقَهُ الشخصُ إذا الشخصُ انعزلُ
فالولاياتُ وإن طابتُ لمنُ ذاقَهَا فالسُّمُّ في ذاك العَسَلُ
نَصَبُ المنصبِ أوهى جسدي وعنائِي من مُداراةِ السَّفَلِ
قَصْرُ الآمالِ في الدنيا تَفْرُ فدلِيلُ العقلِ تقصيرُ الأملِ
إن منْ يطلبُهُ الموتُ على غِرَّةٍ منه جديرٌ بالوَجَلِ

إن تأثر الناس بأخلاق بعضهم وتأثير البيئة والمنصب على الإنسان يؤكد أن حسن
الخلق سلوك متكسب وأن بإمكان أي شخص تهذيب سلوكه وأنه لا عذر لمن ظن خلاف
ذلك. عموماً، البحث عن المبررات يعد من الضعف كمن يقول: بأنه يريد أن يقلع عن
التدخين لكنه لا يستطيع، وكمن يقول: بأنه يريد أن يُحَسِّنُ من سلوكه لكنه لا يستطيع.
في الحقيقة، كلهم يستطيعون ذلك إن هم عقدوا النية الصادقة وأخذوا بالأسباب وتمتعوا
بالعزيمة والإصرار على تحقيق ما يريدون.

¹ ديوان ابن الوردي.

ومن الأمور التي تؤثر إيجاباً على حسن الخلق هي مخالطة الأخيار فالجليس
والصاحب دائماً يؤثرون على أقرانهم. من خالط العلماء تأثر بهم وبكلامهم ومن خالط
السفهاء ناله شيء من سفههم إما عن طريق الكلام أو الأفعال أو حتى السمعة. فلا يوجد
شخص عاقل محترم يحب مصاحبة السفهية لأنه سينظر إليه كما سينظر إلى صاحبه
السفيه. فيستحيل أن تشاهد عالماً مشهوراً ومشهوداً له بالصلاح مصاحباً لأحمق لأنه يربأ
بنفسه عن تلك الصحبة ولا يرضى بها بتاتا.

وعلى كل إنسان أن يعلم بأنه لا شيء يأتي دون مقابل، بل كل أمر يحتاج إلى الجهد
والعمل لبلوغه. فمن أراد شيئاً استعد له وأعد العدة واستمر في المتابعة حتى بلوغه. وفي
طريقنا نحو تحقيق الهدف لابد لنا من مواجهة بعض العقبات فإن تمتعنا بالهمة العالية
وبذل المطلوب لتحقيق أهدافنا السامية سنتغلب على كل العقبات وإن لم نك كذلك
فسيكون مصيرنا الفشل مع توالي العقبات.

من أدرك هذه الأمور سيكون أبعد الناس عن الفشل لأنه سيتمتع بالمرونة الكافية
التي تقيل عثراته، وهذا هو الفرق بين الشخص الجاد وغير الجاد، إذ إن الشخص الجاد
يتوقع العقبات ويعمل على تجاوزها بينما الشخص غير الجاد ربما يدرك العقبات قبل
الشروع في العمل، ولكنه لا يعمل بالشكل المطلوب لتجاوز هذه العقبات.

لذلك لو كان حسن الخلق سجية إذا لما تغير بعض الأشخاص من الأسوأ إلى الأفضل أو العكس، وإذا لظل من كان خلقه حسن على شاكلته طوال حياته وظل من كان خلقه سيئاً على شاكلته طوال حياته. ولا يمكن لحسن الخلق إلا أن يكون سلوكاً مكتسباً يستطيع أن يبلغه كل شخص إذا كانت لديه الرغبة والعزيمة لبلوغه.

خاتمة

لله الحمد أولاً وآخراً ونشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وإن كنت قد أصبت
فمن الله تعالى وحده وإن أخطأت فمن نفسي، ونسأل الله التوفيق والسداد لنا وللمسلمين
جميعاً. في ختام هذا الكتاب، نوجه دعوة لإخواننا وأخواتنا ليكونوا مثلاً لغيرهم وأن يكونوا
عونا للإسلام والمسلمين لا عالة عليهم، فالمؤمن القوي خير من الضعيف كما قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من
المؤمن الضعيف)¹؛ لذلك ينبغي للمسلم أن يكون نَفْعاً لنفسه ولغيره، وأن يكون هذا
النفع للأقرب ثم الأقرب، ويجب عليه أيضاً أن يحب الخير لإخوته من المسلمين كما يحب
لنفسه وبهذا تكتمل أخلاقنا ونساهم في تكوين المجتمع الإسلامي المثالي الذي تسوده
المودة والاحترام.

من ناحية أخرى، عندما يتأمل الفرد ويدرك الأهمية العظيمة لحسن الخلق وما
ينتج عنه وعن المعاملة الحسنة من تألف واحترام بين الناس، فإن هذا الفرد سيكون
مستعداً للأخذ بالأسباب التي تعينه على حسن الخلق. وعلينا أن نعلم أنه بحسن الخلق
نرتقي إلى مصاف الكمال والرشد وبه نفوز بكسب ود واحترام الناس في الدنيا ورضا الله
جل وعلا والقرب من نبيه صلى الله عليه وسلم في الآخرة. فسجية هذه نتائجها حري بنا

¹ رواه مسلم.

أن نبذل لها كل سبب وجهد لنبلغها ونعين الناس وننصحهم بالعمل على بلوغها أيضا وبهذا نكون قد وفينا إخواننا حق النصح لهم ولما يعينهم في حياتهم ليعيشوا حياة طيبة كريمة، وأن يفوزوا بالجنان في الآخرة وهو الهدف الأسمى الذي يسعى إليه كل مؤمن.

كما يجب علينا ألا نغفل عن أهمية النية كما علمنا الإسلام فالنية أصل لقبول الأعمال من الناحية الشرعية ومن الناحية الحياتية هي أصل كذلك لأنها تثبت ما ننوي فعله، بمعنى آخر إنها تؤكد على هدفنا وما ننوي فعله وتؤكد أن تصرفنا لم يكن تصرفا عشوائيا إنما هو مخطط له وهادف إلى أمور بعينها. ومثال ذلك، عندما نحاول التأثير على الآخرين بأخلاقنا الحسنة، فعندما نستحضر النية فإننا نعلم الهدف ونعلم ما نفعل ونعلم ما نخطط له، وغياب النية يدل على قلة التخطيط وربما يسبب بعض العثرات قبيل بلوغ الأهداف لأن وجود الأفكار والخطط المسبقة دائما ما تساعد على تحقيق الهدف، وفي كل هذه الحالات يمثل استحضار النية دافعا قويا لترتيب العمل وإنجازه على الوجه الأكمل.

ومن الأمور التي تعين الناس على حسن الخلق والرقى بأخلاقهم الثقة بالنفس؛ أي أن الفرد يجب أن يكون واثقا من أنه كفؤ لهذا الهدف العظيم. إذا كان هذا الفرد متحمسا وواثقا فإنه سيتمكن من التغيير نحو الأفضل من خلال المثابرة والابتعاد عن التسويف. الثقة بالنفس تمثل أيضا دافعا قويا لمواصلة العمل والجهود لبلوغ الغاية وهي أفضل دافع

للتغلب على العثرات فمن كان واثقاً لن يتوقف عند أول عثرة يعثرها، بل يتابع المسير حتى النهاية وحتى بلوغ الهدف النهائي.

ولابد من التفكير بحال هذه الحياة التي تسمى "الدنيا" والتي تعني "السفلى"، فهي لا تستحق أن نضيع جل جهدنا وتفكيرنا عليها وألا نهملها على الجملة، بل هو حال وسط بين الاثنين. على الفرد ألا ينسى نصيبه من الدنيا وما أحله الله تعالى له، ولكن الخطأ يكمن في صرف جل اهتمامنا لها وإهمال آخرتنا التي هي الأساس وهي الباقية فلا تهمل الباقية على حساب الفانية. إن حياتنا ستنتهي يوماً ما ولا نعلم إن كان ذلك اليوم قريباً أم بعيداً، لكننا نعلم يقيناً بأن الآخرة باقية ولا موت فيها وأن الدنيا زائلة مهما طالت بنا السنون؛ لذلك وجب الجد والعمل على كل عاقل يدرك هذه الحقيقة.

ومما ينبغي علينا تذكره هو التأثير على الآخرين بشكل إيجابي. ينبغي علينا أن نكون إيجابيين وأن نضع بصمتنا الجميلة حيث يمكن لنا أن نضعها لعل الله جل وعلا أن ينفع بنا فنكون سبباً لهداية الناس أو سبباً في تعزيز مكارم الأخلاق. وعلى الفرد هنا أن يفكر كيف يكون قدوة للآخرين. كن قدوة لعائلتك وغيرهم خاصة أطفالك فإنهم يقلدونك في كل شيء فإن تكلمت بكلام غير لائق فإنهم سيفعلون كما تفعل وإن لبست لباساً غير لائق سيلبسون مثلك والعكس صحيح لأن الأبناء غالباً ما يتأثرون بالآباء. وفي الوقت ذاته، يتأثرون بهم إيجابياً عندما لا يسمعون كلمات غير لائقة من الآباء ولا يرونهم يسلكون

مسلكاً غير لائق. وهذا طبعا على العموم، فقد تجد الابن حسن الخلق والتربية وقد يكون أبوه خلافه، وقد يكون الأب صالحا والابن على غير ذلك. ما يتوجب علينا فعله هنا أن نحسن ما استطعنا ونبذل الأسباب لذلك وياذن الله تعالى لن يخيب مسعانا.

ومن حسن الخلق ألا ترد على الإساءة بالإساءة خاصة إذا كنت قادرا على الرد وهذا من الحلم؛ فالحليم هو من صبر وجاهد نفسه على تحمل بعض الأمور التي يراها ولا تسره رؤيتها لكنه يتجاوز عنها حتى لا يتسبب في قطع العلاقات والصلة بين الأرحام والأصدقاء وغيرهم. والحلم أيضا من حسن الخلق وله أهمية كبيرة في تعزيز الروابط الاجتماعية وأواصر المحبة بين الناس.

كن مثالا جيدا لزملائك في العمل أو السفر أو الجامعة وفي السوق وفي كل مكان فالإنسان دائما يؤثر على غيره سلبا كان أم إيجابا، فلعل أمراً يسيراً أو كلمة أو فعلاً بسيطاً يغير حال شخص آخر ويقلبه رأسا على عقب. رب فعل بسيط أثر بإنسان فغير حياته من الضلالة إلى الهدى ومن الظلام إلى النور وغالبا ما تحدث هذه الأمور بين الأصدقاء فهم شديدون التأثير على بعضهم البعض.

اعتبر هذا الصنيع جزءا من معروف تسديه للآخرين وكن فاعلا للخير قوالاً للحق وناصرأ له حتى تعيش مرتاح البال أنت ومن يحيط بك. ومن المهم أن يتحل بالأخلاق الحسنة من كان يريد التأثير على الآخرين ولا يكون ممن يقولون شيئا ويفعلون خلافه لأنه

لا مصداقية لهؤلاء ولن يقبل الناس منهم رأياً ولا نصيحة، مثلهم بهذا كمثل بني إسرائيل
إذ قال الله جل وعلا فيهم: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَثْلَوْنَ الْكِتَابَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ)¹. وهذا الفعل أيضا لا يليق بأي مسلم أو شخص يحب أن يكون على خلق،
كما قال أبو الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى²:

لَا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

من خلال هذه الأفعال تكون بصمتك حاضرة في كل ناد تمر فيه، وستكون حياتك
نافعة لك أولاً ولمن حولك ثانياً وكذلك صحبتك لأنك ستكون ممن يفتقده الأصدقاء إذا
غبت عنهم لأنهم كانوا يسعدون بصحبتك وسيدعون لك بظهر الغيب كلما ذكروك. من
الأمر المهمة أيضا ألا نستصغر أفعال الخير وإن كانت قليلة أو هينة في نظرنا لأننا لا نعلم
حقيقة وقعها على الآخرين، فرب فعل بسيط في نظرنا يكون له تأثير عظيم على بعض
الناس، فقط توكل على الله سبحانه وتعالى وأخلص النية وسترى بإذن الله جل وعلا
النتائج التي ستسرك في الدنيا والآخرة، وآخر قولنا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الكتاب ﴿﴾

¹ سورة البقرة: (44).

² ديوان أبي الأسود الدؤلي.

الفهرس

7 المقدمة

11 تمهيد

17 الفصل الأول

أهمية حسن الخلق

27 الفصل الثاني

مقومات حسن الخلق

39 الفصل الثالث

ثمرات حسن الخلق ودوره في بلوغ الدرجات العلا

47 الفصل الرابع

حسن الخلق يُؤلِّدُ الراحة النفسية

57 الفصل الخامس

الشباب وحسن الخلق

حسن الخلق وتحديات الحياة المعاصرة

العلم وحسن الخلق

حسن الخلق وركوب المعاصي

نواقض حسن الخلق

حسن الخلق وصنائع المعروف

العفو والتسامح من حسن الخلق

حسن الخلق وعزة النفس

هل حسن الخلق سجية فطرية تولد مع الإنسان أم سلوك مكتسب؟

عن الكاتب



يوسف الياس عبد الله كاتب وباحث أكاديمي، حاصل على درجة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي من جامعة كارابوك التركية. إضافة إلى دراساته الأكاديمية في الأدب، التحق يوسف ببرنامج للدراسات الإسلامية في "دار القرآن" الكويتية الذي استمر لمدة أربع سنين.

تضم أعمال يوسف كتباً وبحوثاً متنوعة باللغتين العربية والإنجليزية منها كتاب "فكر بمنطق"، و"مقتطفات أدبية وتاريخية"، إضافة إلى عدد من الكتب الأخرى والقصص القصيرة والروايات.

يمكنكم المتابعة من خلال:

الموقع الإلكتروني: yusifelias.com

فيسبوك: <https://facebook.com/yusif.abdullah.589>